وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الشهيد حمه لخضر – الوادي

كلية العلوم الإسلامية قسم الحضارة الإسلامية

محاضـــرات فـــي مقياس: السّياق في القرآن

موجهة لطلبة السنة ثانية ماستر تخصص: اللغة العربية والدراسات القرآنية

*** السداسي الثالث ***

إعداد الدكتور: حمزة بوخزنة

السنة الجامعية: 2023/2022

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الماستر: اللغة العربية والدراسات القرآنية

السداسي: الثالث

اسم الوحدة: وحدة التعليم الاستكشافي

اسم المادة: السياق في القرآن

الرصيد: 1

المعامل: 1

1. أهداف التعليم:

التعرف على السياق القرآني ومكوناته المقامية والمقالية والغائية، وبيان أهميته ودوره في التفسيره، وعلاقته بمختلف العلوم القرآنية والإسلامية.

2. محتوى المادة:

* مفهوم السياق عند العلماء
* مفهوم السياق القرآني ومكوناته :
* أهمية السياق القرآني ومنزلته في التفسير.
* منزلة السياق من قرائن الترجيح
* أنواع السياق القرآني
* قواعد وضوابط في السياق
* منهج الكشف عن السياق وتعيينه، وكيفية الوصول إليه
* صلة السياق ببعض علوم القرآن (أسباب النزول، المكي والمدني، علم المناسبة، المتشابه، علم القراءات...)

المحاضرة الأولى التمهيدية

يعد السياق من المسائل المهمة في عملية التفسيرية لكتاب الله بمختلف أشكالها، فالقرآن الكريم يتميز بوحدته البنائية التي تُنقل فيها المعاني والمعارف القرآنية في أشكال وأغراض وموضوعات متعدد، لأن القرآن كما يقول رشيد الحمداوي: " لم يفرِد كل سورة من سوره لموضوع معين في الغالب، بل كان يجمع في السورة الواحدة مواضيع متنوعة وأغراضا مختلفة من عقائد وأحكام ومواعظ وقصص وأمثال وجدل وحكم ويتنقل بينها من غير فصل. وهو بذلك مباين لمناهج التأليف البشرية التي تعتمد التبويب والترتيب، وهذا ما جعل المغرضين من المستشرقين كدوزي وبلاشير وغيرهم يطعنون في القرآن، ويرون أن آياته لا يجمعها سياق وليس بينها وفاق! بل في سرده للموضوعات عشوائية واضطراب، وزعموا أن ذلك يعزى إلى البدائية والبساطة في طريقة التأليف مما يدل على أنه فكر بشري لا وحي إلهي ".[1]

وقد عدّ بعض أهل الأصول دلالة السياق مجرد دلالة ذوقية تبنى على الاجتهاد ودقة الاستنباط وإشغال الذهن، وإدراكها مما تختلف فيه العقول والأفهام. يقول ابن دقيق العيد في حديثه عن القسم الأول من القاعدة الأصولية حول مراتب الألفاظ العامة بوضع اللغة ما ظهر فيه عدم قصد التعميم: " وقد وقع تنازع من بعض المتأخرين في القسم الأول في كون

[1]– رشيد الحمداوي: وحدة النسق في السور القرآنية، مجلة الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، ع:03، (1428هـ)، ص:141.

المقصود منه عدم التعميم فطالب بعضهم بالدليل على ذلك وهذا الطريق ليس بجيد لأن هذا أمر يعرف من سياق الكلام، ودلالة السياق لا يقام عليها دليل، وكذلك لو فهم المقصود من الكلام وطولب بالدليل عليه لعسر، فالناظر يرجع إلى ذوقه والمناظر يرجع إلى دينه وإنصافه ".[1]

ولعل كل من أنكر دلالة السّياق وقال بضعفها خاصة في مجال استنباط الأحكام الشرعية كان انطلاقا من هذا الاعتبار، يقول الزركشي: " دلالة السِّيَاق أَنكَرها بعضهم ومن جهِل شيئاً أَنكَرهُ، وقال بعضهم إنَّها مُتَّفق عليها في مجاري كلام الله تعالَى، وقد احتَجَّ بها أَحمد على الشَّافعيّ في أَنَّ الْوَاهِب ليس له الرُّجوع. من حديث: [الْعَائِدُ في هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ يَعُودُ في قَيْئِهِ...] ".[2]

وعامل السّياق هو عنصر هام جدا وخطير في الوقت ذاته، خاصة إذا لم يستغل كما يجب فإنه يصرف دلالات المفردات عن معانيها المرادة مما يؤدي إلى قصور في الفهم على مستوى المعاني العامة للآيات، ويتجلى لنا هذا الأمر خاصة عند تجزئة السياقات القرآنية، وعدم ردّها على بعضها البعض، والنظر في أوجه تقاطعها وتقاربها، فعدم مراعاة ذلك يوقع الباحث في انزلاقات دلالية خطيرة قد تحيد به عن الاقتراب من مقصود الشارع. وقد نبّه الشاطبي من مغبة الوقوع في مثل هذه التعاضي السّياقية في قوله: " ... الالتفات إلى

---

[1]– ابن دقيق العيد ت: 702هـ: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ت: مصطفى شيخ مصطفى و مدثر سندس، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط:01، 1426 هـ – 2005 م ، ج:01، ص:258.

[2]– بدر الدين الزركشي: البحر المحيط في أصول الفقه، ت: محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، ط:01، 1421هـ – 2000م، ج:04، ص:357.

أول الكلام وآخره، بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها، فإن القضية وإن اشتملت على جمل؛ فبعضها متعلق بالبعض لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد، فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرق النظر في أجزائه؛ فلا يتوصل به إلى مراده .[1]

وبذلك يكون النظر الكلي مهيمناً على التتبع الجزئي وموجه له كما يفهم من كلام الشاطبي بل ومؤثراً فيه، إلى درجة أنه قد ينعدم المعنى الجزئي في ظل غياب معنى الكل.

وهنا تتجلى لنا أحد أبرز سمات السّياق القرآني وأعمق خصائصه، وهي تميزه بالاتصال وعدم قابلية التجزئة والتفكيك، كما نبّه عليه المثنى عبد الفتاح محمود معللاً هذه الخاصية التي ينفرد بها السّياق القرآني كون آيات القرآن تتسم بالترابط والتشابك بحيث لا تجد أي انفصال أو انقطاع، وهذا الأمر عائد إلى ترابط المعاني وتتابعها بعناية إلهية، وقد جاء هذا الترابط بين الآيات والمقاطع القرآنية بإحكام بديع، فهو من أوله إلى آخره كلام واحد وسياق متواصل .[2]

---

[1]– إبراهيم بن موسى الشاطبي: الموافقات، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1417هـ– 1997، مج4، ج:04، ص:266.

[2]– المثنى عبد الفتاح محمود: نظرية السياق القرآني دراسة تأصلية دلالية نقدية ، دار وائل، عمان . الأردن، ط:01، 1429هـ . 2008م، ص:58.

وتأتي هذه المطبوعة البيداغوجية موافقة للمقرر الدراسي ضمن السداسي الثالث للسنة ثانية ماستر اللغة العربية والدراسات القرآنية، وقد حاولت فيها استيعاب كل ما يتعلق بموضوع السياق القرآني متحاشيا فيها كثرة الاستطراد في مادتها والتفريعات التي من شأنها أن تبعد عن الفهم والوضوح، ولذا حاولت أن أجعل مادتها ميسرة على الطلاب مستوعبة إلى حد كبير كل حيثيات المقياس. وقد اعتمدنا فيها على جملة كبيرة من المصادر والمراجع المتنوعة والهامة يمكن الاطلاع عليها في فهرس المصادر.

وأسأل الله العلي القدير أن يوفقنا ويوقف طلابنا لكل خير وصلاح، وأن يمهد لهم سبل الفلاح والنجاح.

المحاضرة الثانية: مفهوم السّياق القرآني عند العلماء:

1- دلالة السياق لغة :

يقول ابن فارس: سَوَقَ السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حَدْوُ الشَّيء. يقال ساقه يسوقه سَوقاً. والسَّيِّقة: ما استيق من الدوابّ... .[1]

وجاء في لسان العرب: ... سَوَّاق الإبل يَقْدُمُها، ومنه رُوَيْدَك سَوْقَك بالقَوارير، وقد انْساقَت وتَساوَقَت الإبلُ تَساوُقاً إذا تتابعت وكذلك تقاوَدَت فهي مُتَقاوِدة ومُتَساوِقة، وفي حديث أُم معبد ' فجاء زوجها يَسُوق أعْنُزاً ما تَساوَقُ [2]

أي ما تتابَعُ والمُساوَقة المُتابعة كأنّ بعضَها يسوق بعضاً... يقال ولدت فلانةُ ثلاثةَ بنين على ساقٍ واحدة أي بعضهم على إثر بعض ليس بينهم جارية ووُلِدَ لفلان ثلاثةُ أولاد ساقاً على ساقٍ أي واحد في إثر واحد، وبنى القوم بيوتَهم على ساقٍ واحدة وقام فلانٌ على ساقٍ إذا عُنِيَ بالأَمر وتحزَّم به وقامت الحربُ على ساقٍ وهو على المَثَل... .[3]

ويقول الفيروزآبادي : ساقَ الماشِيَةَ سَوْقاً وسِياقَةً ومَساقاً واسْتاقَها فهو سائقٌ وسَوَّاقٌ والمَريضُ سَوْقاً وسِياقاً: شَرَعَ في نَزْعِ الرُّوحِ، وفلاناً: أصابَ ساقَهُ، وإلى المرأةِ مَهْرَها: أرْسَلَهُ كأساقَهُ... والسِّياقُ ككتابٍ: المَهْرُ ... والمُنْساقُ:

---

[1]- مقاييس اللغة لابن فارس ، مادة سوق، ج:03، ص:117.

[2]- ينظر: أبو السّعادات المبارك ابن الأثير الجزري ت:606هـ: النهاية في غريب الاثر، ت: طاهر أحمد الزاوي،و محمود محمد الطناحي، دار إحياء التراث العربي، بيروت _ لبنان، دط:، دت، باب السين، ج:02، ص:423.

[3]- لسان العرب لابن منظور، مادة سَوَقَ، مج:05، ص:906.

التابِعُ والقَريبُ ومن الجِبالِ: المُنْقادُ طولاً. وساوَقَهُ: فاخَرَهُ في السَّوْقِ. وتَساوَقَتِ الإبِلُ: تَتَابَعَتْ وتَقاوَدَتْ والغَنَمُ: تَزَاحَمَتْ في السَّيْرِ.[1]

يظهر من هذه الدلالات اللغوية للجذر سَوَقَ كما ذكر أصحاب المعاجم أنها تدل في مجملها على معنى التتابع والاتصال والتسلسل وعدم الانقطاع، وعلى إثر هذه المعاني اللغوية جاءت محاولات كل من أراد ضبط مفهوم اصطلاحي يقترب به من تحديد نظرية السياق القرآني خصوصاً والسياق اللغوي بشكل عام.

2 . مفهوم السّياق اصطلاحاً :

يُوظف السّياق في إطاره العام في مجالات عديدة وعلوم مختلفة منها اللغوية والإجتماعية والسياسية والإقتصادية... يقول استيفن أولمان stephen ullmann: كلمة السياق context قد استعملت حديثاً في عدة معانٍ مختلفة. والمعنى الوحيد الذي يهم مشكلتنا في الحقيقة هو معناها التقليدي أي: النظم اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم، بأوسع معاني هذه العبارة.

إنّ السياق على هذا التفسير ينبغي أن يشمل . لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب – بل والقطعة كلها والكتاب كله، كما ينبغي أن يشمل – بوجه من الوجوه . كل ما يتصل بالكلمة من ظروف، وملابسات، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى

[1]– القاموس المحيط للفيروزآبادي، ج:03، ص:239 – 240.

أهميتها البالغة في هذا الشأن .[1]

ويعبّر كذلك عن دلالة السّياق في الاصطلاح اللّساني المعاصر وتحليل الخطاب على أنّها سلسلة الأفكار التي تجسد نصاً ما، وبالتحديد هو: مجموعة النص الذي يحيط بالجملة التي يراد فهمها، وعليه يتوقف الفهم السليم لها، أو هو المحيط اللساني الذي انتجت فيه العبارة .[2]

3 . مفهوم السّياق القرآني :

المتتبع لكلام العلماء والدارسين في تحديد مفهوم لنظرية السّياق في القرآن الكريم خصوصاً، نجد أنّ جل حديثهم كان منصباً أكثر على بيان مدى أهمية السياق، وأثره في عملية الترجيح الدلالي.

وهذا ما خلص إليه ردة الله الطلحي عندما تقدم ليحدد المفهوم الاصطلاحي للسياق في التراث في قوله: ويمكن أولاً إطلاق حكم مفاده أنّه مع تعويل القدماء على السياق والإفادة منه في فهم النصوص وبنائها، إلا أنّه لم يعتد به مصطلحاً قائماً في العلوم المشار إليها*، بدليل أنه لم يوضع له تعريف معين، ولم يجر له في كتب الاصطلاح ذكر .[3]

---

[1]– ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، تر: كمال محمد بشير، مكتبة الشباب، دط. دت، ص:57.

[2]– محمد إقبال عروي السياق في الاصطلاح التفسيري مفهومه ودوره الترجيحي: مجلة الإحياء، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط – المغرب، ع:26، 1428هـ – 2007م، ص:79.

*– يريد بها علوم اللغة والبلاغة والتفسير والأصول.

[3]– ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي: دلالة السياق، معهد البحوث العلمية لجامعة أم القرى، مكة المكرمة – م ع السعودية، ط:(01)، (1424هـ)، ص:41.

فكان ما قدمه العلماء من تنبيهات وإشارات حول نظرية السّياق القرآني، إضافةً إلى استنادهم على الدلالة اللغوية أثر في تحديد معالم ومفهوم هذه النظرية على مستوى النص القرآني، ومن هؤلاء نجد المثنى عبد الفتاح محمود في كتابه " نظرية السياق القرآني " فقد توصل إلى مفهوم لها يرى بأنّه الأقرب للصحة في وصفها، مستندًا في ذلك على المفهوم اللغوي في قوله: والذي يظهر أنّ تعريف السياق القرآني هو: " تتابع المعاني في سلك الألفاظ القرآنية؛ لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى دون انقطاع أو انفصال".[1]

وخلص أيضاً فهد بن شتوي بن عبد المعين الشتوي في رسالة قدمها حول دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي إلى مفهوم للسياق القرآني بعدما أورد آراء العلماء وأقوالهم حوله. يقول: " وبعد هذا البيان فإننا نخلص إلى تعريف للسياق، وهو أنّه: الغرض الذي تتابع الكلام لأجله مدلولا عليه بلفظ المتكلم، أو حاله، أو أحوال الكلام، أو المتكلم، أو السامع ".[2]

وأما صاحب كتاب " دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم " أبو صفية الحارثي فيرى أنّ المقصود من نظرية السّياق القرآني هي: الأغراض والمقاصد الأساسية التي تدور عليها جميع معاني القرآن إلى جانب النظم

---

[1]– المثنى عبد الفتاح محمود: نظرية السياق القرآني، ص:15.

[2]– فهد بن شتوي بن عبد المعين الشتوي: دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في سورة موسى عليه السلام، رسالة ماجستير في التفسير وعلوم القرآن، إشراف: د. محمد بن عمر بازمول، رقم الإيداع الجامعي:42380297، جامعة أم القرى، م ع السعودية، (1426 هـ – 2005م)، ص:27.

الإعجازي والأسلوب البياني الذي يشيع في جميع تعبيراته .[1]

والذي يبدو من هذه المفاهيم التي قدمها الدارسون لنظرية السياق القرآني أنّها تركّز أكثر على جانب المعاني والأغراض الذي سيق من أجلها الكلام، وإن لم تهمل الإشارة إلى البنية النسقية للنص القرآني ووحدتها التي تحتوي السياق ذاته وتحميه.

[1]– نقلا عن: تهاني بنت سالم بن أحمد باحويرث: أثر دلالة السياق في توجيه معنى المتشابه اللفظي في القصص القرآني دراسة نظرية تطبيقية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، إشراف: عبد العزيز عزت، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، م ع السعودية، 1428هـ . 2007م، ص:32 . 33.

المحاضرة الثالثة: أنـواع السّـياق القرآني

يمكن تقسيم السياق القرآني من خلال نظرة العلماء وتتبعهم له إلى صنفين:

. الصنف الأول: سياق اللغوي القرآني.

. الصنف الثاني: سياق المقام أو الموقف (غير اللغوي).

. الصنف الأول: سياق اللغوي القرآني:

وهو الانطلاق من القرآن في وحدته البنائية بمختلف سياقاتها والاعتماد على هذه الأخيرة في الكشف عن دلالات النص القرآني ومعانيه. ومن هنا يمكن أن نقف على الاتصال المباشر لنظرية السّياق القرآني بعلم المناسبة الذي يبرز لنا وحدة البناء القرآني وتماسكه، فكل منهما يكمل الآخر كما يقول المثنى عبد الفتاح محمود: " علم المناسبات القرآنية هو الترجمان الحقيقي للسياق الحقيقي القرآني، وارتباطه به ارتباط الرأس بالجسد، فلا يكاد ينفك عنه بحال، إذ إنّ علم المناسبات يبحث في بيان وجه ارتباط الآيات بعضها ببعضها الآخر في سياقها، والسياق هو الضّام لتلك الآيات بما تحمله الآيات من معان وحقائق، فبيان وجه مناسبة الآيات: هو بيان وجه اتساقها وانتظامها في سياق ما، أي: إن السياق هو الكاشف عن وجه المناسبة... فوظيفة السياق: الكشف عن تتابع وانتظام المعاني، ووظيفة علم المناسبات: الكشف

عن وجه ورود هذا المعنى، وارتصافه في هذا المكان دون غيره، وبيان اللحمة والائتلاف والترابط بين عناصر السياق الواحد؛ فهي علاقة تكاملية ".[1]

وهكذا نجد أمامنا مرجعية أخرى يمكن الاستناد إليها في الكشف عن الوحدة البنائية؛ وهي السياق الذي يمثل عنصرًا هامًا في تماسكها وضبط وحدة القرآن المعرفية كما بيّن هذا محمد رجب البيومي في كلامه السالف الذكر حول أهمية دلالة السّياق القرآني.

وينقسم هذا الصنف من السياق القرآني إلى أربع أقسام، يقول أبو صفية الحارثي: السياق قد يضاف إلى مجموعة من الآيات التي تدور حول غرض أساسي واحد، كما أنه يقتصر على آية واحدة، ويضاف إليها، وقد يكون له امتداد في السورة كلها، بعد أن يمتد إلى ما يسبقه ويلحقه، وقد يطلق على القرآن بأجمعه، ويضاف إليه، بمعنى أن هناك سياق آية، وسياق النص وسياق السورة، والسّياق القرآني، فهذه دوائر متداخلة متكافلة حول إيضاح المعنى .[2] وهذه الأقسام هي كالآتي:

1 . السّياق الكلي للنص القرآني:

وهو الهدف العام الذي يسعى القرآن الكريم للتوجيه إليه، باعتباره كالكلمة الواحدة من الناحية البنائية، فهو كذلك ذو وحدة معرفية كدلالة الكلمة في بنيتها، ويُرجع أبو الأعلى المودودي هذا المسعى القرآني العام إلى عناصر

[1]– المثنى عبد الفتاح محمود: المرجع نفسه، ص:39 . 40.

[2]– نقلا عن فهد الشتوي: المرجع نفسه، ص:42.

ثلاثة، هي: موضوعه: فهو موجه للإنسان بشكل مباشر، أما بحثه الرئيسي: فهو هذا المنهج التنظيري الصّحيح الذي قدمه لخلاص البشرية وأما هدفه: فدعوة الإنسان إلى هذا المنهج، وتبيان هدى الله الذي ظل عنه الإنسان. وهذه العناصر كما يلاحظ تدور في مجملها في فلك واحد وغرض قرآني أساس وهو الدعوة إلى الهداية والذي يدرس القرآن واضعًا هذه النقاط الثلاثة الأساسية أمام عينيه يتبين له بدون ما غموض أنّ هذا الكتاب لم يحد عن موضوعه وبحثه الرئيسي وهدفه المنشود، حتى ولا قيد شعرة، وتجد مباحثه المنوعة تلتئم مع بحثه الرئيسي التئام الدرر الملونة الصغيرة والكبيرة في سمط القلادة السّندسي .[1]

ويتجلى السياق العام في القرآن الكريم من خلال ثلاثة مظاهر، نقف عندها مع شيء من التمثيل، وهي كالآتي:

1- الأغراض والمقاصد الأساسية للقرآن الكريم.

بني القرآن الكريم على مقاصد سامية كلية وجزئية تخدم حياة الإنسانية من كافة جوانبها الروحية ومجالات الحياة المادية، ولذا كان لا بد من الوقوف عليها وكشفها لما فيها من جلب للمصالح ودرء للمفاسد، والإعراض عنها يؤدي إلى وقوع في الخلل وعدم إدراك حقائق المسائل والأمور، يقول الشاطبي: " **وقال تعالى: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: 24].**

[1]- المرجع نفسه، ص: 11.

فالتدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد، وذلك ظاهر في أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن؛ فلم يحصل منهم تدبر".[1]

وقد توصل الطاهر بن عاشور –رحمه الله– باستقرائه إلى أن المقاصد الأساسية التي جاء القرآن الكريم لبيانها: ثمانية، وهي إصلاح الاعتقاد، تهذيب الأخلاق، التشريع، سياسة الأمة وصلاحها وحفظ نظامها، القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم، التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسولﷺ.[2]

2- المعاني الكلية للقرآن الكريم.

المقصود بالمعاني الكلية: هو ما يرد في القرآن الكريم من ألفاظ يطَّرد أو يغلب استعمالها على معنى واحد، وهو ما يسميه بعض العلماء بـ كليات الألفاظ. ومنه لفظة الغلبة كما ذكر الإمام الشنقيطي في تفسير، حيث قال: " وأغلب معاني الغلبة في القرآن الغلبة بالسيف والسنان كقوله: **{إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [65/8]**، وقوله: **{فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ}**، وقوله: **{الم، غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ**

[1] – إبراهيم بن موسى الشاطبي: الموافقات، تح : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1417هـ/ 1997، مج4، ص210.

[2] – ينظر: تفسير التحرير والتنوير، ج1، ص37-39.

مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ} [4/30]، وقوله: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً} [249/2]، وقوله: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ} [12/3]، إلى غير ذلك من الآيات ".[1]

3- الأساليب الكلية المطردة في القرآن الكريم.

ويراد بها ما يطرد استعماله في القرآن الكريم من أساليب، ويسميه بعض العلماء ب"عادات القرآن"، والبعض يسميه " كليات الأسلوب " ليفرق بينه وبين كليات الألفاظ. ومنه ما ذكره ابن كثير في تفسيره في قوله: " كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال فإن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهال إليه ودعائه والتوكل عليه، والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: **(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)**... " [2]

ويقول أيضا: " كثيراً ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، كقوله: **(أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ)** ، **وكقوله: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)** ثم عطف على الإحسان إليهما الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء ..."[3]

---

[1] – الإمام الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج1، ص18.

[2] – تفسير ابن كثير، ج1، ص58.

[3] – المصدر نفسه، ج1، ص611.

2 . السياق العام للسّورة القرآنية:

وهو الموضوع العام الذي تدور حوله المعاني الكلية للسورة في إطارها العام، وقد بين عبد الرحمن حبنك الميداني أهمية مراعاة هذا النّوع من السّياق للمتدبر، فقال: على متدبر كتاب الله أن يضع نصب عينيه ضمن أهداف بحثه وتدبره التوصل إلى اكتشاف الموضوع الذي تدور حوله السورة القرآنية، وهذا يستدعي منه أن يبحث بأناة وتفكير عميق بحثًا كليًا شاملًا للسورة، ويتتبع ارتباط آياتها، ومعاني جملها، بهذا الموضوع، أو بما تفرع عنه من عناصر، وما اتصل به من موضوعات جزئية، وأحكام وشواهد .[1]

ويرى المثنى عبد الفتاح محمود أنّ هذا النوع من السياق في النص القرآني يأتي على قسمين:

القسم الأول: سياق ذو مقاطع؛ وهو الذي يتناول عدة موضوعات تدور حول ركيزة أساسية في السورة، وهذه الركيزة بمثابة القِبلة، إذ تتوجه الموضوعات والمعاني نحوها.[2] ويتجلى هذا النوع لنا خاصة في طوال السّور القرآنية.

[1]– عبد الرحمن حبنكة الميداني: قواعد التدبر الأمثل، ص:27

[2]– المثنى عبد الفتاح محمود: المرجع نفسه، ص: 77.

القسم الثاني: سياق غير متعدد المقاطع؛ يكون توصيف وتحديد الموضوع فيه أقرب إلى الوضوح في رؤية الباحثين.[1] ويظهر لنا هذا النوع غالبًا في قصار السور.

ولا شكّ أنّ محاولة تحديد الإطار الموضوعي العام للسورة القرآنية وتتبعه في مختلف أجوائها وأجزائها هو من الأمور الصعبة لأنّ محاولة الربط الوثيق بين أغراض السورة الواحدة مهارة عقلية فائقة، وهي وإن ظهرت بين الآيتين المتجاورتين على نحو من التأويل في بعض ما تختلف به وجوه القول من آيات الذكر الحكيم فإنّ بعض السور الكريمة لا تكاد تدور على فكرة خاصة بما يساق من هذه المعاني؛ لأنّ الربط الذي برع فيه بعض المفسرين كان ربطًا جزئيًا ينظر إلى الآية المجاورة دون أن يحدد هدفًا واحدًا للسورة إلا بتكلف خاض فيه الخائضون عن اجتهاد يخطئ ويصيب .[2]

ولعل ما ذهب إليه محمد رجب البيومي في قوله هذا من أنّ إدراك السياق أو الإطار العام للسورة أمر ليس بالهيّن، ولكن قد لا يُتّفق معه في قوله أنّ بعض السور الكريمة لا تكاد تدور على فكرة خاصة بما يساق من هذه المعاني وهذا ما يجعل عملية الوصول إلى غرض واحد أو سياق عام تدور حوله أفكار السّورة أمر من الصعوبة بما كان*، ولكن هذا الأمر يتضاءل

---

[1]– المرجع نفسه، ص: 78.

[2]– محمد رجب البيومي: البيان القرآني، ص:133 . 134.

*– كان هذا المدخل بابا من أبواب التي فتحها المستشرقون في حملتهم على النص القرآني للطعن في وحدته الموضوعية، عندما لاحظوا أنّ السورة الواحدة تتنوع فيها الأساليب والأغراض، وتتنقل من موضوع إلى آخر، فأدت

حجم صعوبته عندما ندرك أمرين: **الأول** أنّ السّورة الواحدة في حد ذاتها ترتبط بالوحدة البنائية الكلية للنص القرآني، وهذا ما يسهل للمتدبر مسألة إدراك السياق العام للسورة الواحدة بمراعاة السياق الكلي للقرآن. وبالتالي تصبح العملية مبنية على مبدأ تراكمي أساسه وحدة معرفية كلية ومنهجية قرآنية منضبة محكمة البناء يحتكم إليها حتى في إدراك السياق العام للسورة الواحدة، وتوجيهه توجيها سليما يتساوق والغرض الكلي للقرآن الكريم.

والآخر كائن على المستوى الداخلي للسورة في حد ذاتها يبينه عبد الرحمن حبنك الميداني في قوله: " ولدى الباحث الدقيق المتعمق نلاحظ أنّ السّورة القرآنية تشتمل على وحدات معان متماسكة تشبه حلقات مترابطات، مشمولات بحلقة أكبر منها وهي داخلة فيها ومتعلقة بها، ولا يشترط في كل حلقة موجودة على مسير خطّ النّص أن تكون مرتبطة بالتي قبلها مباشرة، كما نعرف في حلقات السلسلة التي هي كالحبل ، بل قد يكون الارتباط مباشرة بالحلقة الكبرى التي هي أساس الموضوع، أو بحلقة دونها قد سبقت وليست هي الحلقة المباشرة في تسلسل رصف الحلقات ".[1]

= بهم هذه النظرة السطحية إلى القول بأن القرآن مجرد أشتات من أفكار متنوعة عولجت بطريقة غير منظمة، وقالوا بأنّ القرآن هو كتاب غير منظم ولا منهج، يعزوه التنسيق والضبط والتبويب كما يفعل العلماء في مختلف تصانيفهم ومؤلفاتهم. ينظر موسى إبراهيم الإبراهيم: المرجع نفسه، ص:137. وينظر: عبد الله محمود شحاته: علوم القرآن، دار غريب، القاهرة، دط. 2002م، ص:289.

[1]– عبد الرحمن حبنك الميداني: المرجع نفسه، ص:28.

فالعيب إذن يكمن كما يلحظ من كلامه في أصل تصور حقيقة الترابط وطبيعته، وهذا ما يؤثر في اكتشاف السّياق العام للسورة الذي تدور حوله. وقد بين حقيقة هذا الترابط الذي يمكننا من الوقوف على سياق السورة الكلي في مثال تقريبي فقال: " بأن يرسم دائرة كبرى ثم يربط بها حلقة، ثم ينظر في الحلقات التالية، هل يربطها بالحلقة الفرع، أو يربطها بالدائرة الكبرى الأصل ثم يسير هكذا إلى كل الحلقات، ويبحث عن ارتباط بالدائرة الأصل أو بالحلقات الفروع. وبعد البحث العميق والتأمل الدقيق، لا بد أن يكشف نسيجًا عجيبًا بديع الصورة، ويظهر له به رائعة من رائع إعجاز القرآن ".[1]

3 . سياق المقطع القرآني:

يطلق فهد بن شتوي على هذا النوع من السّياق " سياق النص "، والمقصود به كما يقول: " المقطع المتحد في الغرض، ويتبين هذا خاصة في سياق القصص القرآني، ويكون الترجيح أحيانًا بناءً على أساسه ".[2]

ولهذا السّياق دور هام في إبراز وتشخيص الموضوع القرآني خاصة في السور الطوال، وعلى أنّ اهتمام العلماء بسياق المقاطع القرآنية كان قليل إذ جل اهتمامهم منصبًا على بيان آحاد الآيات القرآنية وذكر وجوه المناسبة بينها، فإنّ الانتباه إلى هذا النوع من السياق يمكن أن يعد من الطرق المثلى كما يرى المثنى عبد الفتاح محمود لإدراك وجه المناسبة والتناسق بين الآيات

[1]– المرجع نفسه، ص: 28 . 29.

[2]– فهد بن شتوي بن عبد المعين الشتوي: المرجع نفسه، ص:43.

التي نالت الحظ الأوفر من هذا العلم، وتتجلى هذه المثالية في معرفة هذا النوع من السياق كما يقول: " في تقسيم السورة إلى مقاطع بعد النظر في جميعها، ومن ثم تحليل سياق المقطع لإبراز موضوعه الأظهر فيه، وعندها يطلب وجه المناسبة بين الآيات ".[1]

4 . سياق الآية القرآنية:

يكون النّظر في هذا النّوع من السّياق القرآني في الغرض الذي تنطوي عليه الآية في حد ذاتها، فإذا كان هناك خلاف في معنى آية أو حصل لفظ مشترك فلا يتبين ذلك إلا من سياقها.[2]

ويعبر عليه المثنى عبد الفتاح محمود " بالسّياق الأخص " ويرى أنّ المتأمل للآيات القرآنية حال انفرادها تكون على نوعين:

النوع الأول: يقوم على معنى تام ومكتمل دون مشاركة الآيات المجاورة للآية في بيان معناها، إذ هي متصلة العُرى تبين معناها مستقلة عن غيرها، ومثال ذلك آية الكرسي تعد سياقًا يكتفى به للترجيح الدلالي.

النوع الثاني: وهو ما يقوم على معنى، لكنه لا يكتمل ويتم إلا بمشاركة الآيات المجاورة للآية في بيان معناها، وهو الأشيع في كتاب الله.[3]

---

[1]– المثنى عبد الفتاح محمود: المرجع نفسه، ص:90.

[2]– ينظر فهد بن عبد المعين الشتوي: المرجع نفسه، ص:42.

[3]– المثنى عبد الفتاح محمود: المرجع نفسه، ص:96 . 97.

ومن الأمثلة على هذا النوع أنّ تفسير الآية تارة يكون بجزء منها وكما في تفسير ابن عباس رَضِيَ اللهُ عنْهُما لقوله تعالى: (**وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ)** قال: أنا من القليل الذي يعلم، كانوا سبعة وثامنهم كلب. أخذ ذلك من السياق المذكور في الآية لأنه قال قبلها **(سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) [الكهف:22]** هنا ما جعله من الرجم، فهنا فسر هذه الآية بأنها هذا تفسيرها بدلالة السياق.

ولابد من الإشارة هنا إلى علاقة الآية بغيرها من الآيات في كامل بنية النص القرآني، وليس بما جاورها من الآيات فحسب خاصة في عملية البحث الدلالي، فالمفردة مثلا قد ترد في آيات كثيرة من سور عدة، والنظر إلى سياق الآية مع ما تفرق من الآيات التي وردت فيها يدعم عملية البحث ويوجّها أكثر ويحصنها من الوقوع في الخطأ والزلل، من الاعتماد فقط على ما جاور الآية من سوابق ولواحق من الآيات، وهذا ما يدفعنا دائما للإقرار بوحدة القرآن البنائية وتعلق نظرية السّياق القرآني بها.

وقد نبه على أهمية هذه المسألة عبد الرحمن حبنكة الميداني، بل وجعلها من أولى القواعد وأهمها، وذلك في حديثه عن ارتباط الجملة القرآنية بموضوع السورة، وارتباطها الموضوعي بما تفرق في القرآن المجيد يقول: على متدبر كتاب الله أن يبحث عن ارتباط المعنى المستفاد من جملة قرآنية بما تفرق في

القرآن من معانٍ تجتمع معه في موضوع واحد، وبمعاني الآية التي هي منها، والسورة التي هي فيها. كل معنى جزئي مستفاد من جملة قرآنية له ارتباط بما تفرق في القرآن من معانٍ تلتقي معه في موضوع واحد، وله ارتباط آخر وثيق بمعاني الجمل الأخرى التي اشتملت عليها الآية، كما أنّ الآية ذات ارتباط وثيق بوحدة موضوع السورة .[1]

وما يمكن أن نخلص إليه من هذا العرض لأنواع السّياق القرآني أنها متصلة فيما بينها تربطها ببعضها علاقة تكاملية، ومن هذه العلاقة المتشابكة تتجلى لنا نظرية السّياق على مستوى النص القرآني المتعلقة بشكل مباشر بوحدة القرآن البنائية والموضوعية.

. الصنف الثاني: السياق الحالي أو المقامي المرتبط بالتنزيل القرآني:

المقصود به الاستناد إلى مختلف الظروف والأحوال الخارجية التي صاحبت التنزيل القرآني منجما وأحاطت به والاعتماد عليها للكشف عن دلالاته، وقد اهتم العلماء بهذا النوع من السّياق اهتماما شديدا، وتتجلى لنا هذه العناية من خلال ما صنف فيه، وذلك بتتبعهم لمواطن النُّزول وأوقاته ووقائعه، في اثنا عشر نوعًا أوردها أصحاب مصنفات علوم القرآن، وهي: المكي والمدني، السّفري والحضري، الليلي والنهاري، الصيفي والشتائي،

[1]– عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجل، دار القلم، دمشق، ط:(02)، (1409هـ – 1989م)، ص:13.

الفراشي والنومي، أسباب النُّزول، أول ما نزل وآخر ما نزل.[1]

وكل هذه المسائل كما يلاحظ قرائن مقامية وحالية، خارجة عن البنية اللغوية الداخلية للنص القرآني، وملاصقة لأحداث زمكانية معينة تزامنت والتنزيل التنجيمي للقرآن الكريم. وسنتطرق إلى بعضها، وهي:

1 . أسباب النزول:

كانت عناية العلماء بأسباب النزول بالغة[2] ، مدركين ما لها من فائدة في الإعانة على معرفة وفهم معاني الآيات، لأنّ العلم بالمسبب يورث العلم بالسبب كما يقول شيخ الاسلام ابن تيمية.[3]

والمراد بسبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه. والمعنى أنه حادثة وقعت في زمن النبي ﷺ أو سؤال وجه إليه فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب هذا السؤال. سواء أكانت تلك الحادثة خصومة دبت كالخلاف الذي شجر بين جماعة من الأوس وجماعة من الخزرج بدسيسة من أعداء الله

---

[1]– ينظر البرهان للزركشي، ج:01، وينظر الإتقان للسيوطي، ج:01. وينظر كذلك التحبير في علم التفسير: للسيوطي، ت: فتحي عبد القادر فريد، دار العلوم، الرياض . م ع السعودية. ط:01، 1402هـ . 1982م.

[2]– من شدة عناية العلماء بأسباب النزول أفردوا لها تصانيف كثيرة جمعوا فيها مختلف رواياتها، ينظر: أبو الحسن الواحدي النيسابوري 468 هـ: أسباب نزول القرآن، ت: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط:01، 1411هـ –1991م. وينظر: السيوطي: لباب النقول في اسباب النزول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت – لبنان، ط:01، 1422هـ –2002م.

[3]– تقي الدين ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير، شرح: مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، الدمام – م ع السعودية، ط:(2)، (1428هـ)، ص:90.

اليهود... أم كانت تلك الحادثة تمنيا من التمنيات ورغبة من الرغبات كموافقات عمر رضي الله عنه...[1]

وعلى هذا المعنى تكون أسباب النزول من حيث ارتباطها بالنص القرآني أنها تتحدث عن وقائع وحوادث مجردة وقعت زمن نزول آياته، فهي توضح معاني الكتاب العزيز من حيث اتصالها بالواقع الذي نزلت فيه الآيات، وهذا الواقع هو سياق المقام الذي يعبرون عنه في البلاغة بمقتضى الحال، ومقتضى الحال ارتباطه بالسياق انفصالي لا اتصالي، بمعنى أنه منفصل عن النص فهو ليس جزءًا من الذي ارتبط فيه .[2]

وقد أكدّ أبو الحسن الواحدي على ضرورة معرفة سبب النزول لتفسير كتاب الله فآل الأمر بنا إلى إفادة المبتدئين المتستّرين بعلوم الكتاب، إبانة ما أنزل فيه من الأسباب، إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها... .[3]

ويقول ابن دقيق العيد عن أهمية سبب النزول في فهم معاني القرآن: " وبيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني كتاب الله العزيز وهو أمر

---

[1]– محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ت: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط:01،(1415هـ – 1995م)، ج:01، ص:89 .

[2]– المثنى عبد الفتاح محمود: المرجع نفسه، ص:143.

[3]– أبو الحسن الواحدي: المصدر نفسه، ص:10.

يحصل للصحابة بقرائن تحف بالقضايا ".[1]

ولما كان سبب النزول من الأهمية بما كان في فهم المعاني القرآنية في نظر العلماء، فهو بذلك من هذا المنطلق يتدخل بمختلف قرائنه المقامية ومقتضياتها في ضبط سياق النص اللغوي البنائي الداخلي، ويساعد على تحديده وتصوره، وذلك لأنّ من أسباب النزول كما يقول ابن عاشور: ما ينبه المفسر إلى إدراك خصوصيات بلاغية تتبع مقتضى المقامات، فإن من أسباب النزول ما يعين على تصوير مقام الكلام .[2]

2 . المكي والمدني:

اهتم العلماء كذلك بتتبع المكي والمدني لعلاقته بالسّياق ودوره في فهم دلالات النص القرآني، وقد لاحظوا أن هناك فروق دقيقة تميز كل منهما على مستوى النسيج الخطابي، فالذي يقرأ القرآن كما يقول مناع القطان: " يجد للآيات المكية خصائص ليست للآيات المدنية في وقعها ومعانيها، وإن كانت الثانية مبنية على الأولى في الأحكام والتشريع. فحيث كان القوم في جاهلية تعمى وتصم، يعبدون الأوثان، ويشركون بالله، وينكرون الوحي، ويكذبون بيوم الدين... وهم ألداء في الخصومة، أهل مماراة ولجاجة في القول عن فصاحة وبيان؛ حيث كان القوم كذلك نزل الوحي المكي قوارع زاجرة، وشهبًا منذرة، وحججًا قاطعة ... وحين تكونت الجماعة المؤمنة بالله وملائكته

[1]– ابن دقيق العيد: المصدر نفسه، ج:01، ص:475.

[2]– التحرير والتنوير، ج:01، ص:47.

وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وامتُحنت في عقيدتها بأذى المشركين فصبرت وهاجرت بدينها مؤثرة ما عند الله على متع الحياة – حين تكونت هذه الجماعة – نرى الآيات المدنية طويلة المقاطع، تتناول أحكام الإسلام وحدوده وتدعو إلى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، وتفصل أصول التشريع، وتضع قواعد المجتمع، وتحدد روابط الأسرة، وصلات الأفراد، وعلاقات الدول والأمم، كما تفضح المنافقين وتكشف دخيلتهم وتجادل أهل الكتاب وتلجم أفواههم، وهذا هو الطابع العام للقرآن المدني ".[1]

ولعل ما يلاحظ أنّ أسباب النزول في إطارها العام تضم المكي والمدني، وتحتويهما لأن السبب عام يطلق سواء على ما وقع في مكة أم في المدينة أو فيما سواهما، وإن كان هناك فرق بين المكي والمدني كما بيّن العلماء ، فهو في عمومه كما يقول ردة الله الطلحي : " فرق خطابي أساساً يعتمد على الموضوعية التي تعتمد بدورها على الأحوال المكانية والزمانية في المسموع مكان أو زمان نزوله، واعتقد أن في هذا إشارة واضحة عميقة لسياقي النص والموقف عند المفسرين، الذين وصل بهم الحد في البحث عن دلالات النصوص و الاستنباط منها أن عبروا عنها بلفظ " التفجير* ".[2]

---

[1]– مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف،ط:(03)،(1421هـ– 2000)، ص: 49 . 50.

*– أشار إلى هذا اللفظ شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض تفريقه بين الحافظ الناقل للنصوص والمتفقه المستنبط منها، في قوله: وأين تقع فتاوى ابن عباس وتفسيره واستنبطاته، من فتاوى أبي هريرة وتفسيره؟ وأبو هريرة أحفظ منه ... فكانت همته مصروفة إلى الحفظ وتبليغ ما حفظه كما سمعه ، وهمة ابن عباس : مصروفة إلى التفقه

[2]– ردة الله بن ردة بن ضيف الله طلحي: المرجع نفسه، ص:115.

ومن خلال عملية الوقوف على كل ما يتعلق بالنصوص القرآنية من ظروف وأحوال نتمكن من تحديد موضوع السّياق، فمعرفة المكي أو المدني مثلاً ينقلنا إلى الجو الذي نزل فيه، لنتصور طبيعة الموضوع وخصائصه. فمعرفة المكي والمدني يضبط لنا تاريخ العلاج العقدي، وتاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام، وهذا يعطينا معرفة دقيقة بالسابق واللاحق من الأحكام وكيفية معالجة السياق للمشكلات، بإعطاء تمهيدات وتهيئة للنفوس، وإزالة عوالق الماضي فالتخلية قبل التحلية .[1]

ونخلص من خلال عرض هذا الصّنف من السّياق المتعلق بالنص القرآني أنه سياق خارج عن إطار وحدته البنائية المطلقة غير المحدودة بينما تلك الحوادث والأحوال من أسباب النزول هي في مجملها حوادث تاريخية آنية محدودة تخضع للظرف الزماني والمكاني الذي صدرت فيه، ومع ذلك فإنّ معرفة أسباب النزول أو المكي والمدني وغيرها من الأحوال المقامية التي صاحبت التنزيل تمثل مرحلة أولية وليس هدفًا في حد ذاته للمساعدة في الكشف عن دلالات النصوص القرآنية فمنها تتجلى لنا إطلاقية النصوص القرآنية، التي ليس علينا تحجيمها أو تعيينها بتلك الظروف فحسب، بل علينا مقاربة هذه الظروف ومختلف الأحوال التي تزامنت وعصر التنزيل مع طبيعة النص القرآني المطلقة والمهيمنة التي تحتوي ظروف ذلك العصر وما بعده.

وتتجلى لنا هذه الإطلاقية المعجزة كما يقول عبد الرحمن حللي: " عبر منهجية القرآن المعرفية والتي قاربت عصر النزول بما هو واقع محسوس

= والاستنباط **وتفجير النّصوص** ، وشق الأنهار منها واستخرج كنوزها . ينظر: نقض المنطق، ت: محمد بن عبد الرزاق حمزة، مكتبة السنة المحمدية، دط – دت، ص:80

[1]– المثنى عبد الفتاح محمود: المرجع نفسه، ص:154.

لتنتقل هذه المعالجة التاريخية إلى القيم القرآنية المطلقة التي كلِّف الناس بمقاربتها، فكان النص القرآني ينطلق من ظروف عصر النزول ليفتح أنظار المتلقي إلى آفاق أرحب وأوسع مما هو بحاجة إليه في لحظة النزول تلك، وبذلك كان القرآن نصًا يعالج الحدث التاريخي بلغة ومنهجية تتعالى عليه وتشده إلى المستقبل، عبر صياغة نصية موحاة من الله تتسم بالاستمرارية، وذلك من خلال صموده رغم تغيرات الزمان والمكان، وأوصافه القرآنية تدل على ذلك، فأصبح معينًا يمكن للإنسان أن يهتدي من خلال مقاربته – والتي هي نسبية بطبيعة الحال – إلى التي هي أقوم ".[1]

إنّ معرفة السياق المقامي قد يفيد في الاطلاع على الأحوال العقدية ومختلف الأنماط الفكرية التي يمكن أن يوجد ما يماثلها في أي زمان أو مكان، وهنا تظهر لنا المعجزة القرآنية التي تتجه بخطاب واحد معالج لما يماثل كل تلك التصورات المتغير باستمرار عبر التاريخ، لتتجاوز الزمان والمكان بل والفرد البشري في حد ذاته، فالقرآن لا يخاطب الإنسان من منطلقات قومية انتمائية، وإنما يخاطب الإنسان كفرد من أفراد الجنس البشري عموما من منطلق إسلامي ومنهج عالمي متكامل. يخاطب الذهنية ونمط التفكير العقدي وطريقة السلوك التي يتميز به كل فرد متى وأينما وجد في العالم يقول سعيد رمضان البوطي: إنّ القرآن، رغم نزوله كما علمت متدرجاً،

[1]– عبد الرحمن حللي: المفاهيم والمصطلحات القرآنية (مقاربة منهجية)، مجلة إسلامية المعرفة بيروت . لبنان، ع:35، السنة التاسعة: (1425هـ . 2004م)، ص:66.

ومع مناسبات الوقائع وجواباً على الأسئلة والمشكلات، فإنّه لم يربط أحكامه وبياناته بشيء من تلك الوقائع والمشكلات، ولم يسجل أيّ اسم من أسماء أولئك الذين نزل بين في حقهم آيات وأحكام، وإنما نزلت الآيات موضوعية عامة، دون أن تذكر اسم شخص أو تنزل إلى مستوى مشكلة بخصوصها وذلك كي يبقى القرآن في كل من أسلوبه كتاباً إنسانياً يضع المبادئ والمناهج للبشر كلهم، ويشرع الأحكام والأنظمة للإنسانية جمعاء .[1]

[1]– محمد سعيد رمضان البوطي: من روائع القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، دط، (1420هـ – 1999م)، ص: 222.

المحاضرة الرابعة: أهمية السياق القرآني ومنزلته في التفسير (01).

(باعتباره من تفسير القرآن بالقرآن ، وبالعناية النبوية به)

تتجلى أهمية السياق القرآني ومنزلته في التفسير من خلال الآتي:

1- أنّ دلالة السياق تعد من تفسير القرآن بالقرآن:

تستمد دلالة السياق القرآني أهميتها من كونها تفسير للقرآن الكريم بالقرآن نفسه، وتفسير القرآن بالقرآن هو أعلى أنواع التفسير؛ فالقرآن يفسر بعضُه بعضًا. حيث إنها: بيان المعنى من خلال تتابع المفردات والجمل والتراكيب القرآنية المترابطة، بل إن سياق الآية وسياق المقطع من أعلى مراتب تفسير القرآن بالقرآن؛ لأنه في محل واحد.[1]

وقد عده ابن تيمية أحسن التفاسير وأصح الطرق حيث قال: " أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر من مكان فقد بسط في موضع آخر".[2]

قال ابن عطية: " كان على من يفسر القرآن الكريم أن يرجع إلى القرآن أولا، يبحث فيه عن تفسير ما يريد، فيقابل الآيات بعضها ببعض، ويستعين بما جاء مسهبا ليعرف به ما جاء موجزا، وبالمبين ليفهم به المجمل، ويحمل

---

[1] – عبد الرحمن عبدالله سرور جرمان المطيري: السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة ام القرى– م ع السعودية، 2008م، ص76..

[2] – أحمد ابن تيمية. مقدمة في أصول التفسير. مكتبة دار الحياة، 1980، ص. 39.

المطلق على المقيد، والعام على الخاص ولا يجوز لأحد- كائنا من كان- أن يتخطى هذا التفسير القرآني ".[1]

ومثالٌ آخر: وهو قولُ الله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا** ﴾ **[البقرة: 219]**

فقد جاء في آيةٍ أخرى تحريمُ الإثم الوارد في الخمر، وهي قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ **[الأعراف: 33].**

والإِثم يتناول كلَّ معصية يتسبب عنها الإِثم، وقيل: هو الخمر خاصَّةً، ومنه قول الشاعر:

شَرِبتُ الإِثمَ حتَّى ضلَّ عقلي * كذاك الإِثمُ تذهبُ بالعقولِ**

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله: " وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير".[2]

وينقل الإمام الشنقيطي إجماع الأمة على أهمية هذا النوع من التفسير في قوله: " أن أشرف أنواع التفسير وأجلها تفسير كتاب الله بكتاب الله".[3]

---

[1] – ابن عطية. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. دار الكتب العلمية، 2001، ج. 1. ص. 6.

[2] – محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية: التبيان في أقسام القرآن، ت: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت – لبنان، دط – دت ، ص116.

[3] – تفسير أضواء البيان للشنقيطي، ج1، ص5.

2- العناية النبوية بدلالة السياق في فهم كلام الله:

كان الرسول أكثر الخلق فهمًا لكتاب الله، ومن مهماته الأساسية تبيينُه للنّاس فهو يحوي نظرة إلى الحياة والكون والإنسان جديدة عن العرب، ومن أجل ذلك فهم محتاجون إلى مزيد من الشرح والبيان لها حتى يقفوا عليها، ويعوها حق الوعي لاسيما وإن في القرآن المجمل والعام والمشكل، وفيه من المفردات لا يفهمها بعضهم، فقد كان بعض الصحابة يكتفي بالمعنى الإجمالي لآيات القرآن ويؤخذ بسحرها وجمالها.[1]

فكان ﷺ بفطرته الصافية وسليقته يعرف مكامن الحسن في البيان ومواضع الزلل في القول شديد الحرص في العناية بدلالات الألفاظ القرآنية وكشف معانيها. بل وكان يحث أصحابه على إجادة التعبير، ويُصوب لهم الكلام، ويبين لهم معاني بعض الألفاظ التي يمكن أن يخطئوا في استعمالها، فينبِّهَهم بحسّه اللّغوي الرفيع وبلاغته النبوية الصّافية، فسيتعين بسياقات القرآن الكريم.

يتجلى لنا من هذه الأمثلة المطلب النبوي الحثيث بحرصه ﷺ، وتأكيده على العناية بدلالات المفردات، والدقة في استعمالها باعتبارها الطريق المفضي إلى الإفهام، وإيصال المعنى المراد إلى المخاطب من غير تحريف لمعانيها أو تبديل لدلالاتها المقصودة منها. كما أنّ الحرص على الدقة في

---

[1]- محمد بن لطفي الصباغ: لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط3، 1410هـ - 1990م، ص:199.

التعبير والحيطة في استعمال الكلمة كما يقول عبد الفتاح لاشين: مطلب قرآني أيضا، حَرِص عليه، ونبَّه المؤمنين إليه، حتى لا تضّل المعاني بين الأفهام ، ويضيع المقصود من خلال الاحتمالات.[1]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: 14] فقد زعم الأعراب "الإيمان" فحكى قولتهم، ولكن الله تعالى أراد أن يرشدهم إلى التعبير الصحيح، ويدلهم على الكلمة التي تفصح عما في نفوسهم، فقال: ﴿ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: 14].

ولما كان ﷺ شديد الاهتمام بتقويم الكلام وتصويبه فلا شك أنه اهتمامه بكلام ربّ العزَّة جلّ شأنه أشد، والمطلع على أقواله ﷺ يمكنه الوقوف على عنايته بمفردات القرآن وحرصه على بيان دلالاتها؛ بكشف ما غمض منها وشق على صحابته ﷺ فهمه، فكان يجيبهم عن كل ما سألوه عنه أو يبادرهم هو أحيانا ببيان مما يمكن أن يؤدي إلى اللَّبس أو الفهم الخاطئ في بعض ألفاظ القرآن الكريم، لأن النبي ﷺ يمثل بالنسبة لهم المرجع الأول لفهم كتاب الله، الذي تكفل المولى عز جل بتحفيظه إياه وبيانه له، فقال في محكم

[1]– عبد الفتاح لاشين: ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان، ط: 01، 1406هـ – 1986م، ص:78.

تنزيله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة: 16 – 19].

وعلى الرغم من أن تفسيره عليه ﷺ لم يطل كامل النص القرآني ببيان معاني آياته وتفسير ألفاظه، إلا أنه ترك أقوالا كثيرة تنم على المطلب النبوي الداعي إلى العناية بدلالات السياق، وتوجيه معناها توجيها سليما يتناسب وما يقتضيه البيان القرآني.

وقد أوردها السيوطي في " الإتقان " فذيل آخره بما أثر عنه ﷺ من تفسير مصرحا برفعه له ورتبه بحسب ترتيب المصحف، نذكر مثالا نبرز من خلاله الاهتمام النبوي بالسياق، وتفسيره بعض المواضع التي أشكل فهماها عند الصحابته ﷺ، وذلك كما في بيانه لدلالة " الظُّلْمُ " في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: 82]. فقد شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه، قال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: 13] ؛ إنما هو: الشرك .[1]

ومن الأمثلة: أنّ عائشة رضي الله عنها سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ : **(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ)**. قَالَتْ عَائِشَةُ : أَهُمْ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ

[1]– جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ت: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف م ع السعودية – المدينة المنورة، دط– دت ،ج:06، ص:2365.

الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ ؟ قَالَ : لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ! وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ. **(أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ)**.

فالنبي ﷺ استدل على هذا المعنى باستخدام دلالة السياق، فاستدل بلحاق الآية على المعنى المراد. فإذا نظر للآية الكريمة بمفردها بمعزل عن سياقها، فإنها حينئذ تحتمل معنيين متضادين:

الأول: ما فسرها به النبي ﷺ وهو أن المراد بها الذين يعملون الطاعات وهم خائفون ألا يتقبل منهم لتقصيرهم.

والثاني: ما فهمته عائشة –رضي الله عنها–، وهو أن المراد منها الذين يعملون المعاصي وهم خائفون من لقاء الله –عز وجل–.

وإذا نظر لها في ضوء سياقها فإنه حينئذ يترجح أحد المعنيين وهو الأول، وهذا ما عمله ﷺ، فهو لم يكتف ببيان المعنى الحق والصواب في هذه الآية، بل دلَّل على هذا باستخدام دلالة السياق.[1]

[1] – عبدالرحمن المطيري: السياق القرآني وأثره في التفسير، ص79.

المحاضرة الخامسة: أهمية السياق القرآني ومنزلته في التفسير (02).

(من خلال عناية الصحابة والتابعين به)

1 – عناية الصحابة بدلالة السياق في فهم كلام الله:

بعد وفاة النبي ﷺ أخذ المسلمون يعودون إلى الصحابة ﷺ يسألون عمّا غمض عليهم من ألفاظ القرآن ويستفسرون عن معانيها، فقد كانت عناية الصحابة بالكشف عن معاني كتاب الله شديدة، كما يتبيّن من قول أبي عبد الرحمن السلمي ت:74 هـ : حدثني الذين كانوا يقرئوننا: عثمان وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب، أن رسول الله ﷺ كان يُقرأُهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا.[1]

والعمل على ذلك يقتضي فهم القرآن وتفسير ألفاظه وآياته. فكان الصحابة يرجع بعضهم إلى بعض إذا غمض عليهم شيء في كتاب الله. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن، ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدر بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح ".[2]

---

[1]– أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ت: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:01، 1411هـ – 1990م، ج:2، ص: 559.

[2] – مقدمة في أصول التفسير، ص95.

ومن الأمثلة على عناية الصحابة بدلالة السياق، ما رواه يُسَيْع الحضرمي قال: كنت عند علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، أرأيت قول الله: " ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا "، وهم يقاتلوننا فيظهرون ويقتلون؟ قال له عليّ: ادْنُه، ادْنُهْ! ثم قال: " فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا "، يوم القيامة.[1]

ومنه أيضا ما روي عن عكرمة: أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس رحمه الله: أعمى البصر أعمى القلب، يزعم أن قوما يخرجون من النار، وقد قال الله جل وعز: "وما هم بخارجين منها"؟ فقال ابن عباس: ويحك، أقرأ ما فوقها! هذه للكفار.[2]

2 – عناية التابعين بدلالة السياق في فهم كلام الله:

تلقى التابعون التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم السنة، فكانوا يتكلمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال، كما يتكلمون في بعض السنة بالاستنباط والاستدلال .[3] ومع اتساع حركة التفسير في عصر التابعين لازدياد حاجة الناس إليه لفهم آيات القرآن الكريم وبعد أن ضعفت ملكة اللغة، بدخول أمم أخرى ذات لغات وثقافات مختلفة، نشأ في الأمصار الإسلامية

[1] – ينظر تفسير الطبري، ج9، ص397.

[2] – ينظر تفسير الطبري، ج10، ص294.

[3]– ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير، شرح: مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، الدمام – م ع السعودية، ط:2، 1428هـ، ص: 32.

جماعة من العلماء اشتغلوا بتفسير القرآن، معتمدين في ذلك على ما تلقوه من الصحابة وما وصل إليه علمهم في فهم آيات الكتاب الحكيم، خاصة في مكة والمدينة و البصرة والكوفة.[1] فكان لاتساع دائرة النشاط التفسيري في جهود التابعين أثر كبير في عنايتهم بمعاني القرآن الكريم التي أشكل على الناس فهمها، والمتأمل لأقوالهم في مصنفات التفسير يجد ذلك واضحا، نستقي منها بعض الأمثلة لأشهر المفسرين في هذه الفترة نقف منها على مدى عنايتهم بالمفردات القرآنية:

ومن الأمثلة التي تبرز عناية التابعين بدلالة السياق:

توجيه مجاهد للألفاظ وفق ما يقتضيه السياق، ومنه تفسيره لدلالة " الفتنة " فمرة يفسرها بمعنى " الرّدة والشّرك "، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ ﴾ [البقرة:191]. قال: ارتداد المؤمن إلى الوَثن أشدُّ عليه من القتل، وقال الفتنة الشركُ.[2]

ومرة أخرى فسرها بمعنى " الشبهات " وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ ﴾ [آل عمران: 7]. قال: " ابتغاء الفتنة " الشّبهات. قال: والشبهات ما أهلكوا.[3]

---

[1]– غانم حمد قدوري: محاضرات في علوم القرآن، دار عمار، عمان – الأردن، ط: 1، 1423هـ – 2003م، ص:180.

[2]– تفسير الطبري، ج:3، ص: 56 – 566.

[3]– المصدر نفسه، ج:06، ص:197.

بينما نجده في موضع آخر يفسرها بمعنى " الابتلاء " وذلك في قول تعالى: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ [التوبة: 126]. قال:﴿ يُفْتَنُونَ ﴾؛ يُبتَلُون. ﴿ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾، قال: بالسَّنَةِ والجُوعِ.[1]

[1]– المصدر نفسه، ج:14، ص:580.

المحاضرة السادسة: أهمية السياق القرآني ومنزلته في التفسير (03).

(من خلال عناية العلماء المتقدمين والمتأخرين به)

1- أهمية السياق عند العلماء المتقدمين:

أشار العلماء كثيراً لأهمية السّياق وإلى ضرورة الاعتماد عليه، يقول العز بن عبد السلام: " السّياق مرشد إلى تبين المجملات وترجيح المحتملات وتقرير الواضحات وكل ذلك بعرف الاستعمال فكل صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحا وكل صفة وقعت في سياق الذم كانت ذما فما كان مدحا بالوضع فوقع في سياق الذم صار ذما واستهزاء وتهكما بعرف الاستعمال مثاله (**ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**) أي الذليل المهان لوقوع ذلك في سياق الذم. وكذلك قول قوم شعيب إنك لأنت الحليم الرشيد أي السفيه الجاهل لوقوعه في سياق الإنكار عليه. وكذلك **(إنا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا)** لوقوعه في سياق ذمهم بإضلال الأتباع... "[1]

ويقول ابن دقيق العيد عن السياق هو: " طريق إلى بيان المجملات وتعيين المحتملات وتنزيل الكلام على المقصود منه، وفهم ذلك قاعدة كبيرة من قواعد أصول الفقه ، ولم أر من تعرض لها في أصول الفقه بالكلام عليها وتقرير قاعدتها مطولة إلا بعض المتأخرين ممن أدركنا أصحابهم وهي قاعدة

[1]- عز الدين بن عبد السلام ت:660هـ: الإمام في بيان أدلة الأحكام، ت: رضوان مختار بن غربية، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط:01، 1407هـ - 1987م، ص:159 . 160.

متعينة على الناظر وإن كانت ذات شغب على المناظر ".[1]

ويقول أيضاً ابن القيم الجوزية: " السياق يرشد إلى تبيين المجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظيره وغالط في مناظراته وانظر إلى قوله تعالى:(**ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)** كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير ".[2]

لذا يرى بدر الدين الزركشي مراعاة السياق مسألة ضرورية يجب على المفسّر أن يضعها في أولوياته وعدم إهمالها عند تفسيره لكتاب الله فيقول: " يكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له... "[3]

وقد جعل الشاطبي مراعاة السياق مظهراً من مظاهر الاعتدال في التفسير المفضي إلى الفهم السليم، حين قال: " فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرق النظر في أجزائه؛ فلا يتوصل به إلى مراده، ولا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض ".[4]

---

[1]– ابن دقيق العيد ت: 702هـ: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ت: مصطفى شيخ مصطفى و مدثر سندس، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط:01، 1426 هـ – 2005 م، ص:424.

[2]– محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية: بدائع الفوائد، ت: هشام عبد العزيز عطا – عادل عبد الحميد العدوي – أشرف أحمد الج، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط:(01) (1416هـ – 1996م)، ج:04، ص:815.

[3]– البرهان للزركشي، ج:01، ص:317.

[4] – الشاطبي، أبو إسحاق. الموافقات في أصول الشريعة. تحقيق عبد المنعم إبراهيم. ط1. مكة المكرمة: مكتبة الباز، 1418هـ.، ج 3، ص855.

ومن الذين أسهموا في إبراز دور السياق واستثمروه الراغب الأصبهاني (ت 502 هـ)، في كتابه مفردات القرآن، فقد أثنى الزركشي على منهجه وهو يتحدث عن تفسير بعض آي القرآن الذي لم يرد فيه نقل، حيث قال: "وطريق التوصل إلى فهمه: " النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب، ومدلولاتها، واستعمالاتها، بحسب السياق، وهذا يعتني به الراغب كثيراً في كتاب المفردات، فيذكر قيداً زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ؛ لأنه اقتنصه من السياق " .[1]

وعلى العموم فإنّ الغرض من هذه الأقوال ليس الإحصاء بقدر أن الغرض منها الوقوف على مدى إدراك العلماء لنظرية السياق القرآني، وبيان أثرها في تحديد المعاني والكشف عن اللطائف التي تجلي لنا الإعجاز القرآني من خلال هذه النظرية.

2 . عناية المتأخرين بدلالة السياق القرآني:

وجّه كثير من الباحثين والدارسين في الدرس القرآني الحديث عنايتهم بنظرية السّياق، فقد جعل عبد الله دراز العناية بدلالة السّياق على رأس قائمة الشروط الواجب على المفسر الإلمام بها، في قوله: " إن السّياسة الرّشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه، فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضعية بين جزء

[1] – الزركشي، بدر الدين. البرهان في علوم القرآن. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط21. بيروت: دار المعرفة، 1391هـ، ج2، ص172.

وجزء منه إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها، وضبط مقاصدها ".[1]

ويؤكد محمد رجب البيومي على أهمية السياق القرآني، ودوره في الحد من كثرة التأويلات التفسيرية وتضخمها، مؤكدًا على ضرورة الرجوع إليه وتحكيمه في عملية البحث الدلالي في قوله: " مراعاة السياق العام للنص الأدبي بعامة مما يدل على اتجاه المعاني، ويبدد الظلمة عن وجه الكلام حين تلتبس الآراء، والنص القرآني أرقى النصوص الأدبية في تراثنا الفكري فهو بإعجازه الخارق فوق كل كلام، ولا بد من مراعاة السياق عند تناول معانيه المختلفة، وبخاصة حين نقف موقف الترجيح بين أقوال شتّى ذكرها المفسرون، إذ نرى كتب التفسير تزدحم أحياناً بشتى الأقوال المختلفة في تفسير معنى واحد، ويظل الخالفون ينقلون عن السالفين هذه الأقوال المختلفة وكأنها جميعها من حيث السداد في مستوى واحد، مع أنّ التسلسل في سياق النص تجعلنا نملك أداة الترجيح مؤيدة بالدليل المطمئن، كما تجعلنا في حل من أن نهمل المرجوحات حين نتركها في مصادرها القديمة دون بعث جديد، وإذا اضطررنا إلى الإلمام بها فعلى وجه يثبت ضعفها المرجوح ".[2]

ولعلّ الذي يظهر من عناية العلماء والباحثين بالسّياق القرآني عموماً من أقوالهم نظرياً بالتنويه عليه، والدعوة إلى ضرورة مراعاته، وأما من الجانب

---

[1]– عبد الله دراز: النبأ العظيم، دار القلم– الكويت، ط: (06)،(1405هـ– 1984م)، ص:158.

[2]– محمد رجب البيومي: البيان القرآني، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط:02، 1426هـ . 2005م، ص:265.

التطبيقي وبيان أثره في التوجيه الدلالي فقد رأينا أمثلة عديدة في الفصل الأول من خلال توجيههم وبيانهم لدلالات المفردات مستندين في ذلك بالسياق لتحديد معانيها. ولا نكاد نجد من تخلف عن العناية به سواء في مصنفات التفسير والمتشابه والمشترك وعلم الوجوه والنظائر، وعلم توجيه القراءات، ومصنفات إعجاز القرآن... كما عنُي به خاصة من اهتموا بعلم المناسبات والكشف عن مقاصد السور لما له من علاقة مباشرة بهذا العلم، وكل ذلك يؤكد على ما للسياق من دور مهم في عملية البحث الدلالي.

ولعل الذي يتبين من عناية العلماء بنظرية السّياق هذه العناية الواسعة أنّ السياق لم يعد في نظرهم مجرد وسيلة للتفسير فحسب وإنما يتعدى ذلك إلى مستوى آخر من عملية البحث فيصبح أداة للترجيح، فالسّياق كما يقول محمد إقبال عروي: " لا يقوم بالوظيفة التفسيرية فقط، وإنما يتعداها إلى وظيفة أخرى تختص بترجيح معنىً معين على ما سواه، و تقوية دلالة مخصوصة على حساب دلالة مرجوحة، ورفع الاحتمالات بتأكيد احتمال واحد قوي لقوة مرتكزه السّياقي ".[1]

[1]– محمد إقبال عروي: السياق في الاصطلاح التفسيري، ص:79.

المحاضرة السابعة: منزلة السياق من قرائن الترجيح

السياق ثابت في كل آية من كتاب الله تعالى، وهو أصلٌ في بيان معناها؛ لأنه لا يتعارض مع أي قرينة من القرائن، ولا يجوز الخروج بالآية عما دل عليه لفظها وسياقها.

ويقرر ذلك صاحب قواعد الترجيح في قاعدة مهمة فيقول : " كل تفسير ليس مأخوذاً من دلالة ألفاظ الآية وسياقها فهو رد على قائله ".[2]

ويتقرر من هذا بأن السياق يأتي في المرتبة الأولى من حيث الاعتبار في معنى الآية، ويكون القول الذي يتوافق مع سياق الآية هو القول الصحيح المعتمد. وقد مرّ معنا سابقا أن دلالة السياق القرآني تستمد أهميتها من كونها تفسير للقرآن الكريم بالقرآن نفسه، وتفسير القرآن بالقرآن هو أعلى أنواع التفسير؛ فالقرآن يفسر بعضُه بعضًا. وتفسير القرآن بالقران كما ذكر ابن تيمية أحسن التفاسير وأصح الطرق حيث قال: " أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر من مكان فقد بسط في موضع آخر".[3]

---

[1] – تم الاستفادة في هذه المحاضرة من محمد بن عبد الله الربيعة: أثر السياق القرآني في التفسير دراسة نظرية تطبيقية على سورتي الفاتحة والبقرة، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1427هـ/2006م، ج1، ص29– 32.

[2] – حسين بن علي بن حسين الحربي: قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، دار القاسم، 1417 – 1996، ج2، ص349.

[3] – أحمد ابن تيمية 1980. مقدمة في أصول التفسير. مكتبة دار الحياة. ص. 39.

وفي هذا يقول الزركشي أيضا: " ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له، وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوز".[1]

ولا بد من الإشارة هنا إلى مسألة مهمة يجب اعتبارها، وهي أن معرفة السياق مبنية على الاجتهاد وغلبة الظن، وعليه فيكون تحديد السياق أمراً ظنياً لا قطعياً، ولهذا تجد الاختلاف في تحديد السياق في الآية الواحدة.[2]

مسألة مهمة: تنازع دلالة السياق مع غيرها في معنى الآية .

قد يرد ما يدل ظاهراَ على تعارض بعض الأدلة مع السياق ، لكن التأمل الدقيق في التوفيق بينهما يؤدي إلى تبين الرابط أو المناسبة . ومن ذلك :

أولاً: تعارض دلالة السياق مع الحديث أو مع تفاسير جمهور السلف.

كما في قوله تعالى: **(وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ) [الأحقاف 10]**، فقد ذكر ابن جرير الخلاف في الآية، وأن فيها قولين:

القول الأول: أنه موسى بن عمران ، على مثله، يعني على مثل القرآن، قالوا: ومثل القرآن الذي شهد عليه موسى بالتصديق التوراة.

القول الثاني: أنه عنى به عبد الله بن سلام، قالوا: ومعنى الكلام وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثل هذا القرآن بالتصديق. قالوا: ومثل القرآن التوراة، وهو الوارد عن جمهور السلف.

---

[1] – الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1، ص317.

[2] – ينظر: نوح بن يحيى الشهري: أثر السياق في النظام النحوي، دار طيبة الخضراء، السعودية، ط1، 1441هـ/ 2020م، ص93.

وقد رجح الطبري القول الأول لدلالة السياق ثم رجع إلى القول الثاني لكونه قول أكثر أهل التأويل من السلف. فقال": والصواب من القول في ذلك عندنا أن الذي قاله مسروق في تأويل ذلك أشبه بظاهر التنزيل؛ لأن الآية في سياق توبيخ الله تعالى ذكره مشركي قريش، واحتجاجاً عليهم لنبيه غير أن الأخبار قد وردت عن جماعة من أصحاب رسول الله بأن ذلك عني به عبد الله بن سلام، وعليه أكثر أهل التأويل، وهم كانوا أعلم بمعاني القرآن، والسبب الذي فيه نزل".[1]

وبالنظر نلاحظ أنه لا تعارض بين القولين؛ لأن القول الثاني داخل في القول الأول؛ إذ هو استشهاد بالآية عليه، ولكن القول الأول هو الأصل في الآية ولا يمكن إغفاله لوجوه:

أولاً: أنه سياق السورة كلها والآية في خطاب المشركين، كما ذكر ابن جرير.

قال ابن جرير في تأويل الآية السابقة لهذه الآية: "الخطاب من مبتدأ هذه السورة إلى هذه الآية، والخبر خرج من الله عزّ وجلّ خطاباً للمشركين وخبرا عنهم، وتوبيخا لهم، واحتجاجا من الله تعالى ذكره لنبيه عليهم".[2]

فإذا كانت السورة كلها في المشركين، فما الذي يجعلنا نخص هذه الآية ونخرجها عن سياقها.

---

[1] – تفسير الطبري: جامع البيان، ج11، ص281.

[2] – المصدر نفسه، ج11، ص277.

ثانياً: أن الآية نازلة في مكة، وعبد الله بن سلام لم يسلم إلا بعد الهجرة، فيكون تضمن الآية له على وجه العموم. ويؤكد ذلك ما أخرجه ابن جرير عن مسروق قال: والله ما نزلت في عبد الله بن سلام، ما أنزلت إلا بمكة، وما أسلم عبد الله إلا بالمدينة، ولكنها خصومة خاصم محمد ﷺ بها قومه.[1]

وعلى هذا فلا يكون تفسير السلف مخالفاً للسياق، ولعل ما ورد عن السلف في تفسير الآية من باب دخوله في جنس الشاهد أو أن النبي استشهد بالآية عليه، وذكرها فيه، وهذا كثير في تفاسير السلف.

قال شيخ الإسلام: "وقوله تعالى: وَشَهِدَ شَاهِد ليس المقصود شاهداً واحداً معيناً، وقول من قال: إنه عبد الله بن سلام ليس بشيء، فإن هذه نزلت بمكة قبل أن يعرف ابن سلام، ولكن المقصود جنس الشاهد".[2] يقول ابن كثير": " وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام".[3]

ثانياً: تنازع دلالة السياق مع العموم.

كثيراَ ما يظهر تعارض القول بالعموم مع السياق الخاص في الآية عند الترجيح ، وبالنظر والتأمل يتبين أن القول بما يوافق السياق هو الأصل ، ولا يعارض ذلك القول بالعموم فيما هو في حكمه ، وبذلك يتفق العموم مع

---

[1] – المصدر نفسه: جامع البيان، ج11، ص278..

[2] – تقي بن تيمية الحراني: النبوات، المطبعة السلفية – القاهرة ، 1386هـ، ص17.

[3] – تفسير ابن كثير، ج7، ص 278.

السياق الخاص، لأن القاعدة الأصولية المعتبرة أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وما ذهب إليه صاحب قواعد الترجيح من قوله ":وقواعد العموم مقدمة على قواعد السياق وغيرها، فقواعد العموم أقوى من قواعد السياق".[1]

هذه القاعدة محل نظر، لأنه لا تعارض بين قواعد العموم والسياق ، إذ السياق دال على حكم خاص يؤخذ منه العموم ، فكيف يقدم القول بالعموم .

ولذا نجده مع تقريره لهذه القاعدة قد بيّن تخصيص السياق للعموم في قاعدة أخرى فقال: قاعدة يجب حمل نصوص الوحي على العموم ما لم يرد نص بالتخصيص، ثم يبين المخصص بأنه السياق أو الدليل بقوله: إلا أن يكون السياق يقتضي تخصيصها حتماً، أو يقوم الدليل على ذلك.[2]

ولا يجوز بحال إخراج الآية عن سياقها إلى عموم غير مناسب للسياق لأن ذلك يخرج الآية عن مقصودها وغرضها وسياقها ، ومن هنا قلنا بلزوم الانطلاق من السياق في القول بالعموم ، ولهذا نستطيع القول بأن السياق هو المحدد للعموم والموجه له .

قال صاحب رسالة أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص: "هل يعد السياق عند العلماء مخصصاً للعام أم لا"؟.

---

[1] – حسين بن علي الحربي: قواعد الترجيح عند المفسرين، ج1، ص66.

[2] – المرجع نفسه، ج2، ص528.

قلما تعرض العلماء لهذه المسألة، ولكن ورد عن الشافعي في الرسالة ما يقتضي التخصيص بالسياق، فإنه بوب على ذلك فقال: باب الذي يبين سياقه معناه وأورد فيه قوله تعالى: **(وَأَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ)** فإن السياق أرشد إلى أن المراد أهلها، وهو قوله تعالى: **(إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ) [الأعراف 163]**. وما ذهب إليه قوي؛ لأن السياق نوع من القرائن، ولا ريب في أن الناس في مخاطباتهم يتركون العام لأجل القرينة الدالة على إرادة الخصوص، والشرع يخاطب الناس بحسب تعارفهم.[1]

[1] – عماد الدين محمد الرشيد: أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص، دار الشهاب، 1420هـ – 1999م، ص418.

المحاضرة الثامنة: قواعد السياق وضوابطه 01.

أدت عناية العلماء بالسياق القرآني من خلال بيانهم لأهميته في تفسير كلام الكلام، إلى ضرورة وضع قواعد وضوابط يرجع إليها المفسر كلما أحوجه الأمر لذلك، وقد اجتهد في وضع هذه القواعد والضوابط عدد كبير من العلماء، سنحاول في هذه المحاضرة وغيرها الوقوف عند أهمها.

القاعدة الأولى: كل تفسير أهملت فيه دلالات الألفاظ، أو يأباه السياق فهو باطل.

فصل شيخ الإسلام في هذه القاعدة حيث ذكر أنّ أكثر ما يقع الخطأ في التفسير من جهتين إما بإهمال دلالات الألفاظ، أو إهمال دلالة السياق والأحوال، وذلك في قوله: "وأما النوع الثاني من سببي الاختلاف وهو ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل، فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان... والقائلون بالجهتين المتقدم ذكرهما قسمان:

أحدهما: قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها.

والثاني: قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن والمنزل عليه والمخاطب به.

فالأولون: راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان، والآخرون راعوا مجرد اللفظ وما يجوز عندهم أن يريد به العربي من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به وسياق الكلام، ثم هؤلاء كثيراً ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة كما يغلط في ذلك الذين قبلهم، كما أن الأولين كثيراً ما يغلطون في صحة المعنى الذي فسروا به القرآن كما يغلط بذلك الآخرون، وإن كان نظر الأولين إلى المعنى أسبق ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق.

والأولون صنفان: تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به، وتارة يحملونه على ما لم يدل به، وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلاً فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول، وقد يكون حقاً فيكون خطؤهم فيه في الدليل لا في المدلول. فالذين أخطئوا في الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذهبا يخالف الحق الذي عليه الأمة الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة كسلف الأمة وأئمتها، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم: تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه..."[1]

ومن أمثلة إهمال دلالات الألفاظ:

ما جاء في تفسير ابن كثير في دلالة " اقنى " في قوله: " وقال ابن عباس ومجاهد أيضاً {أَغْنَى} أعطى {وَأَقْنَى} رضي. وقيل: معناه أغنى نفسه وأفقر

[1] – ينظر ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير، ص79–81.

الخلائق إليه، قاله الحضرمي بن لاحق، وقيل: أغنى من شاء من خلقه، وأقنى أي أفقر من شاء منهم، قال ابن زيد، حكاهما ابن جرير وهما بعيدان من حيث اللفظ ".[1]

فهما فسَّراها بالفقر، وليس من معانيها الفقر، بل قيل فيها قولان حكاهما الزجاج:

أحدهما: أقنى بمعنى أرضى. والثاني: أقنى جعل له قنية: أي جعل الغنى أصلا لصاحبه ثابتا.[2] ولذلك قال ابن كثير: " وهما بعيدان من حيث اللفظ " .

ومن أمثلة إهمال دلالة السياق:

ما جاء في تفسير ابن كثير لقوله تعالى : " **{ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا}** قال بعضهم ذلك أدنى ألا تكثر عيالكم، قاله زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة والشافعي رحمهم الله، وهو مأخوذ من قوله تعالى: **{وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً}** أي فقراً **{فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ}** وقال الشاعر:

فما يدري الفقير متى غناه ... وما يدري الغني متى يعيل

وتقول العرب: عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر ولكن في هذا التفسير ههنا نظر، فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر كذلك يخشى من تعداد السراري أيضاً والصحيح قول الجمهور **{ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا}** أي لا تجوروا، يقال: عال في الحكم إذا قسط وظلم وجار".[3]

---

[1] – تفسير ابن كثير، ج4، ص312.

[2] – أبو إسحاق الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلبي، 1408 – 1988 ، ج5، ص76.

[3] – تفسير ابن كثير، ج1، ص557.

القاعدة الثانية: الأولى حمل كلام الله على الغالب من عرفه ومعهود استعماله .

للقرآن الكريم عرف ومعهود في استعماله، فالأولى أن يرجح القول الذي يوافق عادة القرآن ومعهود استعماله وسياقه العام، إلا أن يدل دليل من سياق الآية أو دليل آخر على معنى آخر مستقل.

يقول الشنقيطي: " أن من أنواع البيان التي ذكرنا أن كون أحد الاحتمالين هو الغالب في القرآن. يبين أن ذلك الاحتمال الغالب هو المراد؛ لأن الحمل على الأغلب أولى من الحمل على غيره. وإذا عرفت ذلك فاعلم أن الغالب في القرآن إطلاق التأويل على حقيقة الأمر التي يؤول إليها كقوله: **(هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ)** [100/12]، وقوله: **(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُه الآية) [53/7]، وقوله:(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) [39/10]، وقوله:(ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) [59/4]**، إلى غير ذلك من الآيات ".[1]

ومن الأمثلة على هذا ما مرّ معنا في دلالة الغلبة في القرآن، حيث قال الشنقيطي: " وأغلب معاني الغلبة في القرآن الغلبة بالسيف والسنان كقوله: **{إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [65/8]، وقوله: {فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ}، وقوله: {الم، غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي**

[1] – الإمام الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، ج4، ص2.

أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ} [4/30]، وقوله : { كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً } [249/2] ، وقوله: { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ} [12/3]، إلى غير ذلك من الآيات ".[1]

القاعدة الثالث: لا يجوز العدول عن ظاهر القرآن إلا بدليل.

الأصل في نصوص القرآن أن تحمل على ظواهرها، وتفسر على حسب ما يقتضيه ظاهر اللفظ، ولا يجوز أن يعدل بألفاظ الوحي عن ظاهرها إلا بدليل واضح يجب الرجوع إليه، ولأنه لا يعرف مراد المتكلم إلا بالألفاظ الدالة عليه، والأصل في كلامه وألفاظه أن يكون دالا على ما في نفسه من المعاني، وليس لنا طريق لمعرفة مراده غير كلامه وألفاظه.[2]

وقد قرر هذه القاعدة ابن جرير واعتمد عليها في تفسيره، فقال: "فغير جائز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره، إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل، أو خبر عن الرسول ﷺ تقوم به حجة، فأما الدعاوى، فلا تتعذر على أحد".[3]

وفي هذا يقول الإمام الطبري: " ... وأقول إما أن يدعى أنه صرف اللفظ عن ظاهره بغير دليل أو يقول إنه لا يجوز ذلك إلا بعد امتناع حمله على الحقيقة والأول باطل بإجماع المسلمين ولأنا إن جوزنا ذلك انفتحت أبواب

---

[1] – المصدر نفسه، ج1، ص18.

[2] – حسين بن علي الحربي : قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، ج1، ص 122.

[3] – تفسير الطبري، ج9، ص389.

تأويلات الفلاسفة في أمر المعاد فإنهم يقولون في قوله: **(جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الانْهَارُ) [البقرة 25]**. ليس هناك لا أنهار ولا أشجار وإنما هو مثل للذة والسعادة. ويقولون في قوله: **(ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ) [الحج 77]**. ليس هناك لا سجود ولا ركوع وإنما هو مثل للتعظيم ومعلوم أن ذلك يفضي إلى رفع الشرائع وفساد الدين..."[1]

القاعدة الرابعة: الأصل اتحاد مرجع الضمائر في السياق الواحد أولى من تفريقها.

قد تأتي في سياق واحد جملة من الضمائر المتتابعة قد تحتمل عودتها على أكثر من واحد، وحينئذ نطبق هذه القاعدة السياقية ونرد كل الضمائر على مرجع واحد حال إمكانية ذلك حتى لا يتشتت النظم ويتفرق المعنى، ما دام الأمر محتملا، ولا حجة توجب تفريقها، وتأبى توحيدها.[2]

يقول الزمخشري في ترجيحه لعود الضمير إلى موسى دون التابوت في قوله تعالى: **(فاقذفيه في اليمّ) [طه 39]**: "والضمائر كلها راجعة إلى موسى، ورجوع بعضها إليه، وبعضها إلى التابوت فيه هجنة، لما يؤدي إليه من تنافر النظم. فإن قلت : المقذوف في البحر هو التابوت ، وكذلك الملقى إلى الساحل . قلت: ما ضرك لو قلت : المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت ، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم

[1] – المصدر نفسه، ج30، ص84.

[2] – ينظر: حسين بن علي الحربي : قواعد الترجيح، ج2، ص 241.

إعجاز القرآن والقانون الذي وقع عليه التحدّي ، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر".[1]

ويقول الإمام الشنقيطي أيضا في تقرير هذه القاعدة : " وقد أجمع جميع المسلمين على أن العمل بالظاهر واجب حتى يرد دليل شرعي صارف عنه إلى المحتمل المرجوح وعلى هذا كل من تكلم في الأصول ".[2]

ومن الأمثلة على هذه القاعدة:

ما جاء في تفسير قوله تعالى: **(وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاّ ما ظَهَرَ مِنْها) [النور: 31]** . قال الشنقيطي بعد أن ساق أقوال العلماء في المراد بالزينة الظاهرة والزينة الباطنة: وجميع ذلك راجع في الجملة إلى ثلاثة أقوال:

الأول: أن المراد بالزينة ما تتزين به المرأة خارجا عن أصل خلقتها، ولا يستلزم النظر إليه رؤية شيء من بدنها كقول ابن مسعود، ومن وافقه: إنها ظاهر الثياب، لأن الثياب زينة لها خارجة عن أصل خلقتها وهي ظاهرة بحكم الاضطرار كما ترى. وهذا القول هو أظهر الأقوال عندنا وأحوطها، وأبعدها من الريبة وأسباب الفتنة.

القول الثاني: أن المراد بالزينة، ما تتزين به، وليس من أصل خلقتها أيضا، لكن النظر إلى تلك الزينة يستلزم رؤية شيء من بدن المرأة، وذلك

[1] – الكشاف للزمخشري، ج3، ص46.

[2] – أضواء البيان للشنقيطي، ج7، ص434.

كالخضاب والكحل، ونحو ذلك، لأن النظر إلى ذلك يستلزم رؤية الموضع الملابس له من البدن كما لا يخفى.

القول الثالث: أن المراد بالزينة الظاهرة بعض بدن المرأة الذي هو من أصل خلقتها، كقول من قال: إن المراد بما ظهر منها: الوجه، والكفان. [1]

وقد استعمل دلالة السياق في الترجيح بين هذه الأقوال، حيث قال: " لفظ الزينة يكثر تكرره في القرآن العظيم مرادا به الزينة الخارجة عن أصل المزين بها، ولا يراد بها بعض أجزاء ذلك الشيء المزين بها؛ **كقوله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ [الأعراف: 31]، وقوله تعالى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ} [الأعراف: 32]، وقوله تعالى: إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا} [الكهف: 7]، وقوله تعالى: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا) [القصص: 60]، وقوله تعالى: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ) [الصافات:6]، وقوله تعالى: (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً) [النحل: 8]، وقوله تعالى: (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ} [القصص: 79]، وقوله تعالى: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [الكهف: 46]، وقوله تعالى: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ) [الحديد: 20]، وقوله تعالى: (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ) [طه: 59]، وقوله تعالى عن قوم موسى: (وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ) [طه: 87]، وقوله تعالى: (وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ) [النور:**

[1] – المصدر نفسه، ج27، ص287.

31]، فلفظ الزينة في هذه الآيات كلها يراد به ما يزين به الشيء وهو ليس من أصل خلقته، كما ترى. وكون هذا المعنى هو الغالب في لفظ الزينة في القرءان، يدل على أن لفظ الزينة في محل النزاع يراد به هذا المعنى، الذي غلبت إرادته في القرءان العظيم، وهو المعروف في كلام العرب ".[1]

[1] – المصدر نفسه، ج27، ص289–290.

المحاضرة التاسعة: قواعد السياق وضوابطه 02.

القاعدة الخامسة: الأصل عود الضمير على أقرب مذكور إلا أن يكون هناك دليل خلاف ذلك.

هذه القاعدة تقرر أن الأصل في العربية أن يرجع الضمير إلى أقرب مذكور، فلذلك إذا اختلف العلماء في عائد أحد الضمائر في القرآن، فأرجح الأقوال في هذا الخلاف، القول الذي يعيد الضمير إلى أقرب مذكور، فإعادته إلى القريب أولى من إعادته إلى البعيد.[1]

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " والضمير يعود إلى القريب إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك ".[2]

ويقول الإمام الشنقيطي رحمه الله: " أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، إلا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه ".[3]

ومن الأمثلة على هذه القاعدة ما ورد في تفسير ابن كثير حيث قال: " قال تعالى: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرائيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً}** وقوله في هذه الآية الكريمة **{وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ}** أي وهدينا من ذريته **{دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ}** الآية، وعود الضمير إلى نوح، لأنه

---

[1] – ينظر: حسين بن علي الحربي : قواعد الترجيح، ج2، ص248.

[2] – ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج15، ص212..

[3] – أضواء البيان للشنقيطي، ج4، ص246.

أقرب المذكورين ظاهر لا إشكال فيه، وهو اختيار ابن جرير. وعوده إلى إبراهيم، لأنه الذي سيق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل عليه لوط، فإنه ليس من ذرية إبراهيم، بل هو ابن أخيه ماران بن آزر، اللهم إلا أن يقال إنه دخل في الذرية تغليباً، وكما قال في قوله: **{أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}** فإسماعيل عمه دخل في آبائه تغليباً، وكما قال في قوله: **{فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ}** فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود، وذم على المخالفة لأنه كان في تشبه بهم، فعومل معاملتهم ودخل معهم تغليباً، وإلا فهو كان من الجن وطبيعته من النار، والملائكة من النور ".[1]

[1] – تفسير ابن كثير، ج2، ص189.

القاعدة السادسة: حمل اللفظ على التأسيس أولى من حمله على التأكيد إلا أن يدل السياق على خلاف ذلك.

كل آية قرآنية يعتريها أمران لا ثالث لهما:

الأول: إبراز معنى جديد.

الثاني: تأكيد لمعنى سابق.

وبعض الآيات القرآنية تحتمل كلا الأمرين، فحينئذ يرجع لهذه القاعدة، ويحمل المعنى على التأسيس الجديد إلا أن يدل السياق على إرادة التأكيد؛ لأن الأصل في الكلام هو إفهام السامع ما ليس عنده، ولا يحاد عن الأصل إلا لدليل.[1]

يقول مكي بن أبي طالب: "حمل اللفظين على فائدتين، ومعنيين أولى من حملهما على التكرار بمعنى واحد".[2]

وقال الإمام الشنقيطي: " إن المقرر في الأصول أنه إذا دار الكلام بين التأكيد والتأسيس معاً، وجب حمله على التأسيس، ولا يجوز حمله على التأكيد إلا لدليل يجب الرجوع إليه".[3]

ومن أمثلة هذه القاعدة ما جاء في تفسير ابن ثير لقوله تعالى: **(قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمّا يَأْتِيَنّكُم مّنّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**

[1]– عبد الرحمن المطيري: السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير، رسالة ماجستير – جامعة ام القرى، ص154.

[2] – مكي بن أبي طالب القيسي: الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، تح: أحمد حسن فرحات، دار المنارة، ص219.

[3] – أضواء البيان للشنقيطي، ج3، ص355.

وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ وَالّذِينَ كَفَرواْ وَكَذّبُواْ بِآيَاتِنَآ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [البقرة38].

يقول ابن كثير: " ... وذكر هذا الإهباط الثاني لما تعلق به ما بعده من المعنى المغاير للأول، وزعم بعضهم: أنه تأكيد وتكرير، كما يقال: قم قم، وقال آخرون: بل الإهباط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني من سماء الدنيا إلى الأرض، والصحيح الأول، والله أعلم ".[1]

فنجد أنه –رحمه الله – رجَّح القول الذي فيه تأسيس معنى جديد على القول بالتأكيد؛ لأن التأسيس هو الأصل، وأولى ما يحمل عليه الكلام. فكل من الإهباطين متعلق به حكم غير حكم الآخر، فعلق بالأول العداوة بين بني آدم وإبليس مما يشعر بأن الدنيا دار ابتلاء، ومؤقتة لا خلود فيها، بينما علق الثاني بإتيان الهدى مما يشعر بأنهم أهبطوا للتكليف فمن اتبع الهدى فقد نجا ومن أعرض عنه فقد هلك.[2]

ومن أمثلتها منها ما جاء في تفسير قول الله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ [النور: 41].

اختلف العلماء في عائد الضمير المحذوف الذي هو فاعل «علم».

[1] – تفسير ابن كثير، ج1، ص106.

[2] – ينظر: عبد الرحمن المطيري: السياق القرآني وأثره في التفسير، ص148.

فقال بعض أهل العلم: إنه راجع إلى الله تعالى في قوله: **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ}** الآية، وعلى هذا يكون المعنى: كل من المصلين والمسبحين، قد علم الله صلاته وتسبيحه.

وقال آخرون: بل هو راجع إلى قوله: **{كُلٌّ}** فعلى هذا يكون المعنى: كل من المصلين والمسبحين قد علم صلاة نفسه وتسبيح نفسه.

وأولى القولين في هذا بالصواب القول الثاني، أي إعادة الضمير إلى قوله: **{كُلٌّ}** . وذلك حتى يكون قوله تعالى: **(وَاللهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ)** تأسيسا لمعنى جديد، وهو إحاطة علمه تعالى بكل ما يفعلون.

أمّا على القول الأول فإن جملة **(وَاللهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ)** تكون مؤكدة لمعنى جملة **(قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ)** فالجملة الأولى مخبرة عن علمه تعالى بصلاتهم وتسبيحهم، وكذلك جملة **(وَاللهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ)** مخبرة بذلك فتكون مؤكدة لها.[1]

[1] – ينظر: حسين بن علي الحربي: قواعد الترجيح، ج2، ص124.

القاعدة السابعة: حمل كلام الله على الأوجه الإعرابية اللائقة به.

يقول الإمام ابن القيم –رحمه الله– مقررا ومؤصلا لهذه القاعدة:

" وينبغي أن يتفطن هاهنا لأمر لا بد منه، وهو أنه لا يجوز أن يحمل كلام الله –عز وجل– ويفسر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام ويكون الكلام به له معنى ما، فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن، فإنهم يفسرون الآية ويعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة، ويفهم من ذلك التركيب أي معنى اتفق، وهذا غلط عظيم ويقطع السامع بأن مراد القرآن غيره، وإن احتمل ذلك التركيب هذا المعنى في سياق آخر وكلام آخر؛ فإنه لا يلزم أن يحتمله القرآن".[1]

ومثال هذه القاعدة ما جاء في تفسير ابن كثير لقوله تعالى: **(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبّهُمْ إِنّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ) [الذاريات 5–6].**

" **وقوله تعالى: (آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ).** قال ابن جرير: أي عاملين بما آتاهم الله من الفرائض **(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)** أي قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضاً... والذي فسر به ابن جرير فيه نظر، لأن قوله تبارك وتعالى آخذين حال من قوله في جنات وعيون، فالمتقون في حال كونهم في الجنات والعيون آخذين ما آتاهم ربهم ، أي من

[1] – ابن القيم: بدائع الفوائد، ج3 ، ص876.

النعيم والسرور والغبطة ".[1]

فعلى تفسير ابن جرير –رحمه الله– يكون إعرب " آخذين " حالا ولكنها محكية، ومتقدمة في الزمان على كونهم في جنات وعيون.

وعلى تفسير ابن كثير –رحمه الله– تكون حالا متصلة في المعنى لكونهم في الجنات والعيون، وهذا هو المناسب للسياق في **لقوله: (إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ)**. أي: في الدار الدنيا قبل أخذهم ما آتاهم ربهم في الجنات والعيون، ولا حاجة لحكاية الحال، وقطع تسلسل الكلام، ولذلك رجحه –رحمه الله–، واستدرك على ابن جرير –رحمه الله – تفسيره.[2]

القاعدة الثامنة: القول بالاستقلال مقدم على القول بالإضمار، إلا أن يدل السياق على الحذف.

الأصل في كلام الله تعالى أن يكون كاملاً لا يحتاج إلى تقدير، إلا أن يدل السياق على الحذف؛ لأن الإضمار والحذف والتقدير خلاف الأصل، وقد اختلف ذا اختلف المفسرون في تفسير آية من كتاب الله – تعالى –، فمنهم من يرى افتقار الكلام إلى التقدير، ومنهم من يرى استقلال الكلام وعدم احتياجه إلى ذلك التقدير، والمعنى مستقيم بدونه، فحمل الآية على الاستقلال مقدم؛ لأجل موافقة الأصل.[3]

---

[1] – تفسير ابن كثير، ج4، ص281.

[2] – ينظر: عبد الرحمن المطيري: السياق القرآني وأثره في التفسير، ص166.

[3] – ينظر: حسين بن علي الحربي: قواعد الترجيح، ج2، ص 71.

قال أبو حيان: " متى أمكن حمل الكلام على غير إضمار ولا افتقار كان أولى من أن يسلك به الإضمار والافتقار، وهكذا تكون عادتنا في إعراب القرآن لا نسلك فيه إلا الحمل على أحسن الوجوه، وأبعدها عن التكلف، وأسوغها في لسان العرب ".[1]

ويقول ابن عاشور: " إنك تجد في كثير من تراكيب القرآن حذفاً، ولكن لا تعثر على حذف يخلو الكلام من دليل عليه من لفظ أو سياق ".[2]

ومثال ذلك قوله تعالى: **(وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ) [النساء 171].** فإن الحذف هنا ظاهر لدلالة رفع "ثَلاَثَةٌ" بعد القول. قال ابن جرير: " ورفعت الثلاثة بمحذوف دل عليه الظاهر، وهو هم، ومعنى الكلام: ولا تقولوا هم ثلاثة".[3]

فنجد أن ابن جرير استدل على وجود الحذف بالسياق، وقدره بحسب سياق الآية.

[1] – تفسير البحر المحيط لأبي حيان، ج1، ص61.

[2] – التحرير والتنوير لابن عاشور، ج1، ص122.

[3] – تفسير الطبري، ج9، ص423.

صلة السياق ببعض علوم القرآن

المحاضرة العاشرة: صلة السياق بعلم أسباب النزول .

1 . أسباب النزول:

أسباب النزول هي ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه. والمعنى أنه حادثة وقعت في زمن النبي ﷺ أو سؤال وجه إليه فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب هذا السؤال. سواء أكانت تلك الحادثة خصومة دبت كالخلاف الذي شجر بين جماعة من الأوس وجماعة من الخزرج بدسيسة من أعداء الله اليهود... أم كانت تلك الحادثة تمنيا من التمنيات ورغبة من الرغبات كموافقات عمر رضي الله عنه...[1]

وعلى هذا المعنى تكون أسباب النزول من حيث ارتباطها بالنص القرآني أنها تتحدث عن وقائع وحوادث مجردة وقعت زمن نزول آياته، فهي توضح معاني الكتاب العزيز من حيث اتصالها بالواقع الذي نزلت فيه الآيات، وهذا الواقع هو سياق المقام الذي يعبرون عنه في البلاغة بمقتضى الحال، ومقتضى الحال ارتباطه بالسياق انفصالي لا اتصالي، بمعنى أنه منفصل عن النص فهو ليس جزءًا من الذي ارتبط فيه .[2]

---

[1]– محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ت: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط:01،(1415هـ – 1995م)، ج:01، ص:89 .

[2]– المثنى عبد الفتاح محمود: المرجع نفسه، ص:143.

وقد أكدّ أبو الحسن الواحدي على ضرورة معرفة سبب النزول لتفسير كتاب الله فآل الأمر بنا إلى إفادة المبتدئين المتستّرين بعلوم الكتاب، إبانة ما أنزل فيه من الأسباب، إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها...[1]

ويقول ابن دقيق العيد عن أهمية سبب النزول في فهم معاني القرآن: " وبيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني كتاب الله العزيز وهو أمر يحصل للصحابة بقرائن تحف بالقضايا ".[2]

وللشاطبي كلام دقيق في بيان أهمية أسباب النزول وارتباطها الوثيق بالسياق: " معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن، والدليل على ذلك أمران:

أحدهما: أن علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن فضلاً عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال: حال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطِب، أو المخاطَب، أو الجميع؛ إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حاله، وبحسب مخاطبيه، وبحسب غير ذلك.. ومعرفة الأسباب رافعة كل مشكل في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب ولا بد، ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال.

---

[1]– أبو الحسن الواحدي: المصدر نفسه، ص:10.

[2]– ابن دقيق العيد: المصدر نفسه، ج:01، ص:475.

وينشأ عن هذا الوجه: **الوجه الثاني:** وهو أن الجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه والإشكالات، ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف، وذلك مظنة وقوع النزاع... "[1]

ولما كان سبب النزول من الأهمية بما كان في فهم المعاني القرآنية في نظر العلماء، فهو بذلك من هذا المنطلق يتدخل بمختلف قرائنه المقامية ومقتضياتها في ضبط سياق النص اللغوي البنائي الداخلي، ويساعد على تحديده وتصوره، وذلك لأنّ من أسباب النزول كما يقول ابن عاشور: " ما ينبه المفسر إلى إدراك خصوصيات بلاغية تتبع مقتضى المقامات، فإن من أسباب النزول ما يعين على تصوير مقام الكلام ".[2]

وتظهر العلاقة التكاملية بين أسباب النزول والسياق، من خلال عدة جوانب، وهما:

1- أثر دلالة السياق في ضبط أسباب النزول للوقوف على المعنى المراد:

ومثال هذا ماأخرجه البخاري: (أن مروان بن الحكم قال لبوابه: يا رافع؛ إذهب إلى ابن عباس فقل له: لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبًا، لنعذبن جميعًا !، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية؟ إنما أنزلت في أهل الكتاب! ثم تلا ابن عباس: **(وَإِذَ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ**

[1]- الموافقات للشاطبي، ج4، ص146.

[2]- التحرير والتنوير، ج:01، ص:47.

الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ) إلى قوله: (أن يحمدوا بما لم يفعلوا) [آل عمران 178]. قال ابن عباس: سألهم النبيّ ﷺ عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما قد سألهم عنه، فاستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه).

فهذا المثال يبين أثر الحال الذي نزلت فيه الآية ومن نزلت فيه، ويزيل الإشكال الوارد فيها. وقد استدل على نزولها في اليهود بالسياق وهو الآية السابقة لها. ولولا سياق الآية لبقي الإشكال قائما في ذهن السائل.

2- أثر أسباب النزول في ضبط دلالة السياق وتحديدها:

ومثال هذا ما جاء في قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا) [البقرة104].** فإن الآية لا يمكن معرفة سياقها ومعناها إلا بمعرفة الحال التي نزلت فيه، وهو أن اليهود كانوا يقولونها للنبي ﷺ ويقصدون بها الاستهزاءً والطعن.

وذلك أن المسلمين كانوا يقولون راعنا يا رسول الله ، من المراعاة أي أرعنا سمعك ، أي فرغ سمعك لكلامنا ، يقال : أرعى إلى الشيء ، ورعاه ، وراعاه، أي أصغى إليه واستمعه ، وكانت هذه اللفظة (شيئا) قبيحا بلغة اليهود، وقيل : كان معناها عندهم : اسمع لا سمعت .

وقيل: هي من الرعونة إذا أرادوا أن يحمقوا إنسانا قالوا له : راعنا بمعنى يا أحمق! فلما سمع اليهود هذه اللفظة من المسلمين قالوا فيما بينهم : كنا نسب

محمدا سرا ، فأعلنوا به الآن ، فكانوا يأتونه ويقولون : راعنا يا محمد ، ويضحكون فيما بينهم ، فسمعها سعد بن معاذ ففطن لها ، وكان يعرف لغتهم، فقال لليهود : لئن سمعتها من أحدكم يقولها لرسول ﷺ لأضربن عنقه، فقالوا : أولستم تقولونها ؟ فأنزل الله تعالى (لا تقولوا راعنا) كيلا يجد اليهود بذلك سبيلا إلى شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم (وقولوا انظرنا) أي انظر إلينا.[1]

فلولا سبب النزول الذي حدد طبيعة الكلمة الدلالية لم يدرك المعنى من سياق نهي القرآن قول تلك الكلمة.

3- دور السياق في الترجيح بين أسباب النزول وبيان الأصح منها:

ومثال هذا ما أورد عن ابن جرير في قوله تعالى: **(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ الآية) [آل عمران 31].** في قوله: " اختلف أهل التأويل في السبب الذي نزلت فيه هذه الآية.. وأولى القولين بتأويل الآية قول محمد بن جعفر بن الزبير – يعني أنها نزلت في وفد نجران – لأنه لم يجر لغير وفد نجران في هذه السورة، ولا قبل هذه الآية ذكر قوم ادعوا أنهم يحبون الله، ولا أنهم يعظمونه ".[2]

ومن خلال هذه الأمثلة جميعها ندرك العلاقة التكاملية بين السياق وأسباب النزول لفهم دلالات الخطاب القرآني.

[1] – تفسير البغوي، ج1، ص132.

[2] – تفسير الطبري، ج6، ص324.

المحاضرة الحادية عشر: صلة السياق بعلم المكي والمدني.

اهتم العلماء بعلم المكي والمدني لعلاقته الوطيدة بالسّياق ودوره في فهم دلالات النص القرآني، وقد لاحظوا أن هناك فروق دقيقة تميز كل منهما على مستوى النسيج الخطابي، فالذي يقرأ القرآن كما يقول مناع القطان: " يجد للآيات المكية خصائص ليست للآيات المدنية في وقعها ومعانيها، وإن كانت الثانية مبنية على الأولى في الأحكام والتشريع. فحيث كان القوم في جاهلية تعمى وتصم، يعبدون الأوثان، ويشركون بالله، وينكرون الوحي، ويكذبون بيوم الدين... وهم ألداء في الخصومة، أهل مماراة ولجاجة في القول عن فصاحة وبيان؛ حيث كان القوم كذلك نزل الوحي المكي قوارع زاجرة، وشهبًا منذرة، وحججًا قاطعة ... وحين تكونت الجماعة المؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وامتُحنت في عقيدتها بأذى المشركين فصبرت وهاجرت بدينها مؤثرة ما عند الله على متع الحياة – حين تكونت هذه الجماعة – نرى الآيات المدنية طويلة المقاطع، تتناول أحكام الإسلام وحدوده وتدعو إلى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، وتفصل أصول التشريع، وتضع قواعد المجتمع، وتحدد روابط الأسرة، وصلات الأفراد، وعلاقات الدول والأمم، كما تفضح المنافقين وتكشف دخيلتهم وتجادل أهل الكتاب وتلجم أفواههم، وهذا هو الطابع العام للقرآن المدني ".[1]

[1]– مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف،ط:(03)،(1421هـ– 2000)، ص: 49 . 50.

فيلاحظ من خلال كلام مناع القطان أن الخطاب المكي والمدني لكل واحد منها سياق خاص يميزه عن غيره على سواء من ناحية المبنى والأساليب أو من ناحية الموضوعات والمقاصد والأغراض.

فمن الناحية الأولى: فللآيات المكية خصائص أسلوبية ليست للآيات المدنية، فمن خصائص الآيات المكية أنها متضمنة للوعيد والتهديد غالباً، فتجد مثلاً كلمة "كلا" الرادعة الزاجرة، وكلمة الصاخة التي تشعر بالوعيد والتهديد، ومن خصائص الآيات المدنية أن ألفاظها متضمنة للوعد والترغيب غالباً، ولذا تجد في افتتاحها بنداءات الإيمان، وخواتمها بأسماء الرحمن.

ومن الناحية الثانية: نضرب مثالا عليها من خلال موضوع الحج، الذي جاء الحديث عليه في سورة الحج، وهي مكية، وغرضها إقامة التوحيد لله وإظهار أدلته ولهذا جاء فيها الحج ببيان أصول التوحيد فيه، وهذا ظاهر في قوله تعالى: **(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ (25) وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (26) وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ (27) لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ (28) ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ (29) ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ**

عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ (30) حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ (31) ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ) [الحج25 وما بعدها]

بينما موضوع الحج في سورة البقرة، وهي مدينة، وغرضها تقرير أصول أحكام الشريعة، ارتبط ذكر الحج ببيان أصول أحكامه. وهذا واضح في قوله تعالى: **(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)**
[البقرة196].

وعلى وجه العموم فإنّ الوقوف على كل ما يتعلق بالنصوص القرآنية من ظروف وأحوال أمر في غاية الأهمية، إذ نتمكن من خلاله تحديد موضوع السّياق، فمعرفة المكي أو المدني مثلاً ينقلنا إلى الجو الذي نزل فيه، لنتصور طبيعة الموضوع وخصائصه. فمعرفة المكي والمدني يضبط لنا تاريخ العلاج العقدي، وتاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام، وهذا يعطينا

معرفة دقيقة بالسابق واللاحق من الأحكام وكيفية معالجة السياق للمشكلات، بإعطاء تمهيدات وتهيئة للنفوس، وإزالة عوالق الماضي فالتخلية قبل التحلية.[1]

❁۞❁۞❁

[1]– ينظر المثنى عبد الفتاح محمود: المرجع نفسه، ص:154.

المحاضرة الثانية عشر: صلة السياق بعلم المناسبة .

1. تعريف علم المناسبة:

ظاهرة التناسب في القرآن هي من أبرز الظواهر التي تبرز لنا إعجاز الأسلوب القرآني وكمال بنائه وشدة تعاضده، وقد نالت هذه الظاهرة بالبحث اهتمام كثير من العلماء قديماً وحديثاً. ويمكن أن تُجمل جهودهم في الكشف عنها وتتبعهم لها من ناحيتين:

أ . التناسب اللفظي المناسبة المتعلقة بالدلالة الحاصلة من الألفاظ ، سواء كانت الألفاظ مفردة أو مركبة من حيث الشكل أو المعنى داخل السياق.[1]

ب . التناسب المعنوي المناسبة المتعلقة بالدلالة الحاصلة من التأليف ، وتشمل المناسبة بين السور، والمناسبة بين الآيات داخل السورة.

والذي يهمنا هنا النوع الثاني، الذي سنقوم بإبراز علاقته بالسياق القرآني فيما يلي:

2 . مفهوم علم المناسبة وأهميته:

يعد علم المناسبة من علوم القرآن الدقيقة الذي شد إليه انتباه العلماء فحاولوا الكشف عن وجوه المناسبة بين السور والآيات في القرآن، التي تبرز وحدة القرآن المعرفية والموضوعية، وقد عُني العلماء بهذا العلم كثيرًا لما له

[1]– مصطفى شعبان عبد الحميد: المناسبة في القرآن دراسة لغوية أسلوبية للعلاقة بين اللفظ والسياق اللغوي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط:01، 1428هـ . 2007م، ص:37.

من فوائد جليلة في الوقوف عن دلالات النصوص القرآنية وبيان مواطن إعجازه ، واتصال أجزائها وترابطها مع بعضها البعض في سلك اتساقي واحد.

يعرف برهان الدين البقاعي هذا العلم بقوله: علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها؛ فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة .[1]

ويعرفه أيضا أبو بكر بن العربي فيقول: ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني....[2]

ومن التعاريف الحديث تعريف منّاع القطان، الذي يرى بأنّ المقصود من هذا العلم إدراك وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أوبين السورة والسورة .[3]

ولعلم المناسبة فوائد عظيمة وقد عُني به الفخر الرازي في تفسيره عناية واسعة للكشف عن كثير من وجوه الارتباط والمناسبة بين الآيات والسور، لأنّ أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط .[4]

---

[1]– برهان الدين البقاعي ت:885هـ: نظم الدرر في تناسب الايات والسور، ت: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط:01، 1415هـ –1995م، ج:01، ص:05.

[2]– ينظر البرهان للزركشي، ج:01، ص:36.

[3]– مناع القطان: المرجع نفسه، ص:96.

[4]– تفسير مفاتيح الغيب للرازي، ج:10، ص:107.

ويبين الزركشي الحكمة من النظر في هذا العلم، وذلك في جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء .[1]

3- التأليف في علم المناسبة:

ترجع البوادر الأولى لنشأة وظهور علم المناسبة كما يرى رشيد الحمداوي عند فريقين من المفسرين:

- مفسرون غلب عليهم البحث عن الأسرار البيانية في نظم القرآن الشاهدة بإعجازه.

- مفسرون غلب عليهم الاتجاه الصوفي، فهم يلتمسون لطائف القرآن وبدائع إشاراته.[2]

وممن برز بالتأليف في هذا العلم من علماء المشرق الإسلامي:

- أبو بكر النيسابوري ت 338 هـ ويعد أقدم من صنف فيه وبينه في كتابه " المناسبة بين الآيات والسور ".

- أبو بكر بن العربيت542 هـ في كتابه " سراج المريدين".

- الفخر الرازي 606 هـ في تفسيره الكبير.

- أبو حيان التوحيدي ت 745 هـ في تفسيره البحر المحيط.

- الشهاب الخفاجي ت791 هـ في حاشيته على البيضاوي.

---

[1]- البرهان للزركشي، ج:01 ،ص:36.

[2]- رشيد الحمداوي: المرجع نفسه، ص:155.

– الإمام السيوطي ت 911هـ له فيه عدة مصنفات منها: " أسرار التنزيل "، وأفرد كتابا لتناسب السور سماه " تناسق الدرر في تناسب السور". وله كتاب " أسرار ترتيب القرآن ".

– الألوسي ت 1280 هـ في تفسيره روح المعاني.

وممن برز بالتصنيف في هذا العلم من علماء الغرب الإسلامي:

– أبو الحكم بن برجان الإشبيلي ت 536 هـ في تفسيره "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم".

– أبو الحسن الحرالي المراكشي ت 638 هـ في تفسيره.

– أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي655 هـ في تفسيره "رِي الظمآن في تفسير القرآن ".

وقد نضجت فكرة التناسب خاصة عند أبي جعفر بن الزبير الغرناطيت 708 هـ، فألف كتاب " البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن "، كما ألف كتابه " مِلاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل "، وبين فيه مناسبة كل لآية من الآيات المتشابهة في ألفاظها لمساقها. ثم أتى بعده برهان الدين البقاعي ت 885 هـ؛ ليستفيد مما قدمه سابقيه في هذا المجال كما يظهر من مصنفه فيه مستفيدا من تفسير الحرالي وكتاب ابن الزبير الغرناطي. فصنف فيه تفسيرا استوعب فيه المناسبات بين السور والآيات في القرآن كله، وسماه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور".

وممن اهتم به كثيرا في العصر الحديث:

– سيد قطب في تفسيره الظلال.

– الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير.

- الشيخ سعيد حوى في تفسيره الأساس في التفسير.

- محمد دراز في كتابه النبأ العظيم.

4- مظاهر علم المناسبة:

تتجلى أبرز مظاهر عناية العلماء في الكشف عن وجوه المناسبة، من خلال الآتي:

أ . البحث عن وجه المناسبة بين مطلع السورة وموضوعها العام.

ب . البحث عن وجه المناسبة بين مطلع السورة وآخرها.

ج . البحث عن وجه المناسبة بين الآيات داخل السورة الواحدة.

د . البحث عن المناسبة بين السورة والسورة التي تليها. بين خاتمة السورة وأول السورة التي تليها.

والذي يبدو من هذه الوجوه أنها في مجملها قائمة على مستوى النص القرآني بكامله حصرا، لتساهم بشكل كبير ومباشر في بيان وحدته البنائية بجعله جملة دلالية واحدة متكاملة مترابطة ومتعلقة ببعضها البعض، ولذا فهذا العمل يكشف لنا بحق ما يقوم به المفسرون من جهد كبير لإيجاد العلاقة الدلالية بين أجزاء النص القرآني سوره وآياته، وتعتمد على ربط أجزائه ربطاً دلاليا على مستوى الوحدات الكبرى المتمثلة في الجمل والسياقات لا الوحدات الصغرى المتمثلة في المفردات، وهو يشابه إلى حد بعيد ما ينادي به المحدثون من علماء النص من النظر إليه أي النص نظرة كلية تتناول جميع أجزائه، وعلاقة تلك الأجزاء ببعضها على المستويين الشكلي و الدلالي .[1]

[1]- مصطفى شعبان عبد الحميد:المناسبة في القرآن دراسة لغوية أسلوبية للعلاقة بين اللفظ والسياق اللغوي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط:(01)، (1428هـ . 2007م)، ص: 39.

5- نماذج عن علاقة السياق بعلم المناسبة:

وتتجلى علاقة السياق القرآني وصلته بعلم المناسبة كونهما وجهان لعملة واحدة فكل منهما يكمل الآخر كما يقول المثنى عبد الفتاح محمود: " علم المناسبات القرآنية هو الترجمان الحقيقي للسياق الحقيقي القرآني، وارتباطه به ارتباط الرأس بالجسد، فلا يكاد ينفك عنه بحال، إذ إنّ علم المناسبات يبحث في بيان وجه ارتباط الآيات بعضها ببعضها الآخر في سياقها، والسياق هو الضّام لتلك الآيات بما تحمله الآيات من معان وحقائق، فبيان وجه مناسبة الآيات: هو بيان وجه اتساقها وانتظامها في سياق ما، أي: إن السياق هو الكاشف عن وجه المناسبة... فوظيفة السياق: الكشف عن تتابع وانتظام المعاني، ووظيفة علم المناسبات: الكشف عن وجه ورود هذا المعنى، وارتصافه في هذا المكان دون غيره، وبيان اللحمة والائتلاف والترابط بين عناصر السياق الواحد؛ فهي علاقة تكاملية ".[1]

وقد قرّر هذه العلاقة الوطيدة بين السياق وعلم المناسبة الإمام البقاعي فيما نقله عن شيخه المغربي المالكي: " الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر إلى ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب... وإذا فعلته تبين لك - **إن شاء الله**-

[1]- المثنى عبد الفتاح محمود: المرجع نفسه، ص:39 . 40.

وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة ".[1]

ونقل الزركشي عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كلاما مهما يبرز من خلاله علاقة المناسبة بالسياق: " المناسبة علم حسن ولكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر ..."[2]

وقال أيضا: " قال بعض مشايخنا المحققين قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها حسب الوقائع المتفرقة وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا وعلى حسب الحكمة ترتيبا فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف... والذى ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ففي ذلك علم جم وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له ".[3]

ومن الأمثلة التي نوردها في بيان علاقة علم السياق بعلم المناسبة:

1- من خلال خواتم وفواتح السور:

فسور القرآن كلها تلاحظ فيها المناسبة قائمة بين سياقات فواتحها وخواتيمها، ومن ذلك افتتاح سورة الأنعام بسياق الحمد جاء مناسبا لختام سورة

---

[1] – نظم الدرر للبقاعي، ج1، ص18.

[2] – الزركشي البرهان في علوم القرآن، ج1، ص37.

[3] – المصدر نفسه، ج1، ص37.

المائدة من فصل القضاء كما قال سبحانه: **(وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين).**

وكافتتاح سورة فاطر أيضا بسياق (الحمد) أيضا فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله: **(وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل).** وكما قال تعالى **(فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين).**

وكافتتاح سورة الحديد بسياق التسبيح فإنه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به.[1]

2- المناسبة مناسبة قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [البقرة 254].**

وردت بعد قوله تعالى: **(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) [البقرة 253].** ومناسبتها تظهر بالتأمل في السياق فإن ما قبلها وارد في سياق الإخبار عن حتمية الاختلاف والاقتتال الموافق للسنة الربانية والحكمة الإلهية في إرادة ذلك. وذلك يستوجب الإعداد والتهيؤ، لذا أمر بالإنفاق. ويؤيد هذا قوله في ختامها **(الْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)** فكأنه قيل: منهم من آمن ومنهم من كفر.. والكافرون هم الظالمون، فأعدوا لقتالهم وأنفقوا مما رزقناكم. في

[1] – المصدر نفسه، ج1، ص38.

ذلك يقول أبو حيان: " مناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه لما ذكر أن الله تعالى أراد الاختلاف إلى مؤمن وكافر، وأراد الاقتتال، وأمر به المؤمنين، وكان الجهاد يحتاج صاحبه إلى الإعانة عليه، أمر تعالى بالنفقة من بعض ما رزق، فشمل النفقة في الجهاد".[1]

3- المناسبة في قوله تعالى: **(حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى)[البقرة 238]**

جاءت هذه الآية في وسط الحديث عن الطلاق والمشكلات الأسرية، وهي تستوقف كل قارئ لها في طلب مناسبتها، وهذا أمر مقصود في غرض الآية، وبالتأمل في السياق تظهر مناسبتها بكل جلاء، وهي متضمنة عدة وجوه في المناسبة منها:

أولاً: أنه لما أطال الحديث في أحكام الأسرة وأحكام النساء خاصة وما يتعلق بهن، وهي موضوعات تصرف هم الإنسان وتشغله عن عبادة ربه وقضاياه الكبرى التي هي عبادة الله تعالى وقضايا الأمة، أمر الله تعالى بالمحافظة على الصلاة مباشرة لتنتزع نفوس المؤمنين من الانشغال بحقوق الخلق لترفعهم إلى الانشغال بحقوق الحق تعالى.[2]

قال البيضاوي: " لعل الأمر بها في تضاعيف أحكام الأولاد والأزواج لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها".[3]

---

[1] – البحر المحيط لأبي حيان، ج6، ص604.

[2] – ينظر: تفسير المنار، ج2، ص436.

[3] – أنوار التنزيل للبيضاوي، ج1، ص128.

ثانياً: أنه لما كان الحديث في الآيات عن الطلاق والقتال، وهما يمثلان أعظم أوقات الأزمات الداخلية والخارجية، ويحصل بسببهما الهم والقلق، ذكر الله تعالى سبيل الخلاص والخروج من هذه الأزمات والدواء الناجع لها، وهو المحافظة على الصلاة التي هي أعظم ما يسكن النفوس عند القلق ويزيل الهموم ويثبت القلوب.

فانظر إلى أثر السياق في بيان المناسبة، وهذا يؤكد لنا أن المناسبة جزء في السياق؛ إذ أن السياق هو الذي ربط بين الآية وما قبلها وما بعدها.

4- قال تعالى: **(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيَ إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصّلاَةَ وَآتُواْ الزّكَاةَ ثُمّ تَوَلّيْتُمْ إِلاّ قَلِيلاً مّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مّعْرِضُونَ) [البقرة83].**

بين ابن كثير علاقة السياق وأثره في بيان وجه المناسبة الحاصلة في الآية بين ما ذكر فيها من معاني، حيث قال: " وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس: حسناً بعدما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي، ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمتعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة ، فقال: (وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)... "[1]

[1] – تفسير ابن كثير، ج1، ص152.

5- ومن الأمثلة على أثر السياق في بيان وجه المناسبة بين مقاطع السورة ما جاء في تفسير قوله تعالى عند ابن كثير في قصة مريم عليها السلام: **(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً فَاتّخَذَتْ مِن دُونِهِم حِجَاباً فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا فَتَمَثّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً قَالَتْ إِنّيَ أَعُوذُ بِالرّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً قَالَ إِنّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً قَالَتْ أَنّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبّكَ هُوَ عَلَيّ هَيّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لّلنّاسِ وَرَحْمَةً مّنّا وَكَانَ أَمْراً مّقْضِيّاً....) [مريم 16 إلى 36].**

" لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً مباركاً، عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة، ولهذا ذكرهما في آل عمران وههنا، وفي سورة الأنبياء يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر ".[1]

[1] – المصدر نفسه، ج3، ص140.

المحاضرة الثالثة عشر: صلة السياق بعلم المتشابه اللفظي.

1. تعريف المشابه اللفظي:

يعرف بدر الدين الزركشي المتشابه بقوله: ((هو إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة. ويكثر في إيراد القصص والأنباء)).[1] ويعرفه فهد بن شتوي بعد استقراء أجراه في مختلف مظانه للبحث عن مفهوم جامع يقترب من تحديده وضبطه، بقوله: ((هو الآيات المتكررة في موضوع واحد متقارب المعنى مع اختلاف في لفظها أو نظمها أو كليهما)).[2]

2. أشهر ما صنف في متشابه القرآن:

علم المتشابه هو من العلوم التي تتطلب طول تفكر ودقة نظر؛ لأن طلب المناسبة بين الآيات التي يقع فيها التشابه لا يتأتى بيسر وسهولة، إذ يقوم أصحاب مثل هذه التصانيف بتتبع المواضع التي يتشابه فيها اللفظ أو التركيب القرآني في السياق نفسه، ومن ثمَّ محاولة إعطاء تفسير وتوجيه بياني لهذا التنوع الحاصل في الموضوع القرآني نفسه في الحروف والألفاظ والعبارات، ومن أشهر ما ألف فيه: كتاب متشابه القرآن العظيم: لأبي الحسن أحمد بن أبي داود بن المُنادي (ت:336هـ).

---

[1]– البرهان للزركشي، ج:01، ص:112.

[2]– فهد بن شتوي بن عبد المعين الشتوي: دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى، رسالة ماجستير في التفسير وعلوم القرآن، إشراف: د. محمد بن عمر بازمول، رقم الإيداع الجامعي:42380297، جامعة أم القرى، م ع السعودية، (1426 هـ – 2005م)، ص:100.

. درّة التنزيل و غرّة التأويل: لأبي عبد الله محمد بن عبد الله، الخطيب الإسكافي (ت:420).

. أسرار التكرار في القرآن 'البرهان في توجيه متشابه القرآن': لمحمود بن حمزة الكرماني

. ملاك التأويل القاطع بذي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه من اللفظ في آي التنزيل: لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (ت:708هـ).

. كشف المعاني في المتشابه من المثاني: لبدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة (ت:733هـ)

. معترك الأقران في مشتبه القرآن: جلال الدين السيوطي (ت911هـ).

. فتح الرحمن بما يلتبس في القرآن: لأبي زكرياء الأنصاري (ت:926هـ).

3. نماذج من عناية العلماء بالسياق في فهم دلالات الألفاظ القرآنية المتشابهة:

بيان دلالة " العبادة " في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: 21]. وقد وظف الكرماني دلالة السياق ليحدد المراد منها، يقول: ((ليس في القرآن غيره؛ لأن العبادة في الآية: التوحيد. والتوحيد أول ما يلزم العبد من المعارف، فكان هذا أول خطاب خاطب الله به الناس في القرآن ، فخاطبهم بما ألزم أولا ، ثم ذكر سائر

المعارف، وبنى عليها العبادات فيما بعدها من السّور))[1].

وتظهر علاقة السياق ودوره في اللتفريق بين دلالات الألفاظ المتشابهة التي قد يعتقد بترادفها التي ترد غالبا في القصة القرآنية ذاتها، ومن الأمثلة على ذلك الفرق بين دلالة " اسلك " و" أدخل " و في قوله تعالى:﴿ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ ﴾[النمل: 12] ، وقوله تعالى: ﴿ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ ﴾[القصص: 32]. يقول: ((خصت هذه السورة . النمل . ب" أدخل " لأنه أبلغ من قوله: " اسلك "، لأن اسلك يأتي لازما و متعديا، و" أدخل " متعد لا غير، ولأن في هذه السورة ﴿ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ ﴾؛ أي: مع تسع آيات مرسلا إلى فرعون. وخصت السورة – القصص – بقوله: " اسلك " موافقة لقوله: " اضمم "، ثم قال: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: 32]. فكان دون الأول، فخص بالأدنى والأقرب من اللفظين))[2].

ومن الأمثلة على ذلك تفريق ابن جامعة بين دلالة كل من الفعل "أرسل" و"بعث" بالاستناد إلى سياق كل منها، في قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾[الأعراف: 111]. وقوله:﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾[الشعراء: 36]. قال ابن جماعة: ((كلاهما معلوم المراد، فما

---

[1]– محمود بن حمزة الكرماني: البرهان في توجيه متشابه القرآن، ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة، القاهرة، دط، (1397هـ . 1977م)، ص:67 – 68.

[2]– المصدر نفسه، ص:192.

فائدة اختلاف اللفظين؟

" أَرْسِل " أكثر تفخيما من " ابْعَث " وأعلى رتبة، لإشعاره بالفوقية. ففي الأعراف حكى قول الملإ لفرعون، فناسب خطابهم له بما هو أعلى رتبة تفخيما له ، وفي الشعراء : صَدَّر الكلام بأنه هو القائل لهم ، فناسب تنازله معهم ومشاورتهم له وقولهم:"ابعث")).[1]

ومنه كذلك بيانه لدلالة " الخلق " و " الجعل " مستندا إلى السّياق ليفرق بينهما في قوله تعالى:﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾[النساء: 1] ، وقوله:﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: 189]. قال ابن جماعة: ((جوابه: أنَّ آية النساء في آدم وحواء عليهما السلام لأنها خلقت منه، وآية الأعراف قيل: في قصي، أو غيره من المسلمين ولم تخلق منه، فقال: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ، لأن الجعل لا يلزم منه الخلق، فمعناه: جعل من جنسها زوجها)).[2]

[1]– بدر الدين بن جماعة: كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ت:عبد الجواد خلف، دار الوفاء – المنصورة، ط:(01)، (1410هـ – 1992م)، ص:47، ، ص:176.

[2]– المصدر نفسه، ص:136.

المحاضرة الرابعة عشر: صلة السياق بعلم القراءات القرآنية.

يرتبط السياق ارتباطا وثيقا بتوجيه القراءات القرآنية والاحتجاج لها، ويعد علم توجيه القراءات من علوم القرآن المهمة، يقول الزركشي مبرزا شأن هذا العلم في معرفة معاني الألفاظ: ((وهو فن جليل وبه تعرف جلالة المعاني وجزالتها وقد اعتنى الأئمة به وأفردوا فيه كتبا ...)).[1]

فغاية هذه النوع تكمن في ((بيان وجه القراءة من حيث العربية، ومعرفة الفروق بين القراءات المختلفة... والتوجيه يكون للأداء، وللإعراب، وللصرف، وللغة، وللمعنى)).[2]

ولعل ما يهمنا من هذه الجوانب ما تعلق بالمعنى؛ لأنّ الاختلاف في القراءة غالبا يؤدي إلى اختلاف في المعنى فكثيراً ((ما كان اختلاف وجوه القراءة يؤدّي إلى اختلاف وجهات النظر في معاني اللفظ القرآني، وفق الوجه المختار، فمن القراء من وافق اختياره معنى اللفظ وأبقى عليه، ومنهم من خالف اختياره معنى اللفظ ووجه إلى معنى آخر غير الأول)).[3]

وقد صُنّف في هذا العلم كتب كثيرة لتوجيه القراءات، ومنها:

. إعراب القراءات السبع وعللها: لابن خالويه (ت:370هـ).

---

[1]– البرهان للزركشي، ج:01، ص:342.

[2]– مساعد بن سليمان الطيار: فصول في أصول التفسير، دار ابن الجوزي، الدمام، ط:(03)، (1420هـ – 1999م)، ص: 126.

[3]– سعد الكردي: المرجع نفسه، ص:23.

. الحجة للقراء السبعة أئمة الأمصار بالحجاز والعراق والشام الذين ذكرهم ابن مجاهد: لأبي علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي (ت:377هـ).

. حجة القراءات: لأبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة (ت: 410 هـ).

. الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: لمكي بن أبي طالب القيسي (ت:437)

. الموضح في وجوه القراءات وعللها: لنصر بن علي الفارسي ابن أبي مريم (ت:565هـ).

<u>نماذج من عناية كتب الاحتجاج للقراءات بالسياق في بيان دلالاتها :</u>

منه قوله تعالى: ﴿ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ ﴾ [البقرة:259] ؛ يقول ابن خالويه: ((يقرأ بالراء والزاي. فمن قرأ بالزاي، فالحجة: أن العظام إذا كانت بحالها لم تُبْلَ، فالزاي أولى بها، لأنها ترفع ثم تكسى اللحم. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[الملك: 15] ؛ أي: الرجوع بعد البِلَى. والحجة لمن قرأ بالراء: أن الإعادة في البلى وغيره سواء عليه، (فإنما يقول له كن فيكون). ودليله قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾[عبس: 22])).[1]

ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا ﴾[الحج:34]؛ ((قرأ حمزة والكسائي: {مَنْسِكًا} بكسر السين؛ وهو المكان الذي ينحر فيه، كما

[1]– ابن خالويه: الحجة في القراءات السبع، ت: عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، ط:(03)، (1399هـ . 1979م)، ص:101.

يقال: (مجلِس) لمكان الجلوس. قال الفراء: هو المكان المألوف الذي يقصده الناس وقتا بعد وقت. والمناسك سميت بذلك. وقرأ الباقون: ((منْسَكًا)) بالفتح، والمنسك بمعنى المصدر. وحجتهم ما روي عن مجاهد في قوله: ((مَنْسَكًا)) قال: ذبحا. تقول نَسَكْتُ الشَاةَ، أي: ذبحتها. المعنى: جعلنا لكل أمة أن تتقرب لأن تذبح الذبائح لله. وليدل على ذلك قوله: ﴿ لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ [الحج: 34]. أي: عند ذبحها إياها. ويقوي المصدر قوله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ فصار فعلا ")."[1]

ومنه أيضا ما جاء في تفسير ابن كثير حيث اعتمد على السياق في رد القراءة الشادة في قوله تعالى: **(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) [البقرة 126].**

يقول: " وقرأ بعضهم **(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً)** الآية، جعله من تمام دعاء إبراهيم وهي قراءة شاذة مخالفة للقراء السبعة، وتركيب السياق يأبى معناها، والله أعلم، فإن الضمير في قال: راجع إلى الله تعالى في قراءة الجمهور، والسياق يقتضيه، وعلى هذه القراءة الشاذة يكون الضمير في قال عائداً على إبراهيم، وهذا خلاف نظم الكلام، والله سبحانه هو العلام ".[2]

---

[1]. أبو زرعة عبد الرحمن بن زنجلة: حجة القراءات، ت: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: (05)، (1413هـ - 1997م)، ص:476 . 477.

[2] - تفسير ابن كثير، ج1، ص216.

ومنه أيضا قوله تعالى: **(هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) [الكهف 44].**

يقول ابن كثير في توجيه كلمة الحقّ بين الرفع والخفض:"... ثم منهم من رفع الحق على أنه نعت للولاية، **كقوله تعالى: (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً)**. ومنهم من خفض القاف على أنه نعت لله عز وجل، كقوله **(ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ) الآية**، ولهذا قال تعالى: **{هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً}** أي جزاء **{وَخَيْرٌ عُقْباً}** أي الأعمال التي تكون لله عز وجل، ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير ".[1]

فنجد أنه نظر إلى اختلاف سياق الآيتين على القراءتين، ولمَّا اختلف السياقان اختلف المعنيان، ولذلك وجَّه معنى كل قراءة حسب سياقها، فهو يرى أن كلمة "الحق" إعرابها نعت، ومن المقرر في قواعد العربية أن النعت يتبع المنعوت، ففي كل قراءة يوجهها بحسب مشابهتها للمنعوت، فإذا خفضت أصبحت نعتا للاسم المجرور "لله"، وإذا رفعت، جعلها نعتا للمرفوع "الولاية"، ثم استشهد لكل توجيه بما يؤيده من القرآن.[2]

[1] – المصدر نفسه، ج3، ص105.

[2] – ينظر: عبد الرحمن المطيري: السياق القرآني وأثره في التفسير، ص184.

قائمة المصادر والمراجع

- أبو إسحاق الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلبي، (1408هـ – 1988م).

- أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني: معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت لبنان، دط، (1399هـ – 1979م).

- إبراهيم بن موسى الغرناطي الشّاطبي: الموافقات ت: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط:(01)، (1417هـ/ 1997م).

- إسماعيل أبو الفداء ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ت: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة الرياض – م ع السعودية، ط:(02)، (1420هـ – 1999 م).

- إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ت: أحمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين، بيروت _ لبنان، ط:(04)، (1990م).

- بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ت:محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، دط– دت.

- برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الايات والسور، ت: عبد الرزاق غالب المهدي دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط:(01)، (1415هـ – 1995م).

- تقي الدين ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير، شرح: مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، الدمام – م ع السعودية، ط:(2)، (1428هـ).

- تقي الدين ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ت: أنور الباز - عامر الجزار، دار الوفاء، ط:(03)، (1426 هـ - 2005 م).

- جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ت: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، م ع السعودية . المدينة المنورة، دط، دت.

- الحسين بن أحمد ابن خالويه: الحجة في القراءات السبع، ت: عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، ط:(03) (1399هـ - 1979م).

- حسين بن علي بن حسين الحربي: قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، دار القاسم، (1417هـ - 1996م).

- ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي: دلالة السياق، معهد البحوث العلمية لجامعة أم القرى، مكة المكرمة - م ع السعودية، ط:(01)، (1424هـ).

- عبد الرحمن بن زنجلة: حجة القراءات، ت: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:(05)، (1413هـ - 1997م).

- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجل، دار القلم، دمشق، ط:(02)، (1409هـ - 1989م).

- عبد الفتاح لاشين: ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، دار الرائد العربي، بيروت - لبنان، ط: 01، (1406هـ - 1986م).

- عبد الله دراز: النبأ العظيم، دار القلم- الكويت، ط: (06)،(1405هـ-1984م).

- عبد الله محمود شحاته: علوم القرآن، دار غريب، القاهرة، دط، (2002م).

- علي أبو الحسن الواحدي النيسابوري: أسباب نزول القرآن، ت: كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط:(01)، (1411هـ – 1991م).

- علي بن أحمد بن حزم الأندلسي: الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط:(2)، (1983م).

- غانم حمد قدوري: محاضرات في علوم القرآن، دار عمار، عمان – الأردن، ط: (1) (1423هـ – 2003م).

- المبارك أبو السّعادات ابن الأثير الجزري: النهاية في غريب الأثر، ت: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء التراث العربي، بيروت _ لبنان، دط:، دت.

- محمّد بن عبد الرزّاق المرتضى الزَّبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية.

- محمد ابن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ت:أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: (01)، (1420 هـ – 2000 م).

- محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ، الدار التونسية – تونس، دط، (1997م).

- محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية: التبيان في أقسام القرآن، ت: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت – لبنان، دط – دت.

- محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية: بدائع الفوائد، ت: هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي - أشرف أحمد الج، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط:(01) (1416هـ - 1996م).

- محمد بن علي ابن دقيق العيد: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ت: مصطفى شيخ مصطفى ومدثر سندس، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط:(01)، (1426هـ-2005م).

- محمد بن عمر فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت - لبنان، ط:(01)، (1401هـ - 1981م).

- محمد بن لطفي الصباغ: لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1410هـ - 1990م.

- محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، ت: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض - زكريا عبد المجيد النوقي- أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط:(01)، (1413هـ - 1993م).

- محمد رجب البيومي: خطوات التفسير البياني، سلسلة البحوث الإسلامية ، الأزهر، د ط (1391هـ . 1971م).

- محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ت: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط:01،(1415هـ - 1995م).

- محمد عبده: تفسير المنار، تأليف: محمد رشيد رضا، دار المنار - القاهرة، ط:02، (1366هـ - 1947م).

- محمود أبو الفضل الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

- محمود بن حمزة الكرماني: البرهان في توجيه متشابه القرآن، ت: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة، القاهرة، دط، (1397هـ - 1977م).

- محمود بن عمر أبو القاسم الزمخشري: الكشاف، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض مكتبة العبيكان، الرياض، ط:(01)، (1418هـ - 1998م).

- مساعد بن سليمان الطيار: فصول في أصول التفسير، دار ابن الجوزي، الدمام، ط:(03) (1420هـ - 1999م).

- مصطفى شعبان عبد الحميد: المناسبة في القرآن دراسة لغوية أسلوبية للعلاقة بين اللفظ والسياق اللغوي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط:(01)، (1428هـ . 2007م).

- مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف،ط:(03)،(1421هـ-2000).

- ناصر الدين أبو الخير البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل،دار الفكر، بيروت–لبنان.

- نظام الدين النيسابوري القمي: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ت: زكريا عميرات دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط:(01)، (1416هـ - 1996م).

- تهاني بنت سالم بن أحمد باحويرث: أثر دلالة السياق في توجيه معنى المتشابه اللفظي في القصص القرآني (دراسة نظرية تطبيقية)، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، إشراف: عبد العزيز عزت، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، م ع السعودية، (1428هـ - 2007م)

- صالح عبد الله محمد الشثري: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية(رسالة دكتوراه)، إشراف: محمد محمد أبو موسى، رقم الإيداع الجامعي:2 - 4178872، جامعة أم القرى، م ع السعودية،(1421هـ - 2001م).

- فهد بن شتوي بن عبد المعين الشتوي: دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى، رسالة ماجستير في التفسير وعلوم القرآن، إشراف: د. محمد بن عمر بازمول، رقم الإيداع الجامعي:42380297، جامعة أم القرى، م ع السعودية، (1426 هـ - 2005م).

- عبد الرحمن عبدالله سرور جرمان المطيري: السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة ام القرى- م ع السعودية، 2008م.

- محمد بن عبد الله الربيعة: أثر السياق القرآني في التفسير دراسة نظرية تطبيقية على سورتي الفاتحة والبقرة، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1427هـ/2006م.

- رشيد الحمداوي: وحدة النسق في السور القرآنية، مجلة الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، ع:03، (1428هـ).

- عبد الرحمن حللي: المفاهيم والمصطلحات القرآنية (مقاربة منهجية)، مجلة إسلامية المعرفة بيروت . لبنان، ع:35، السنة التاسعة: (1425هـ . 2004م).

- محمد إقبال عروي: السياق في الاصطلاح التفسيري مفهومه ودوره الترجيحي، مجلة الإحياء تصدرها الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط- المغرب، ع:26، (1428هـ - 2007م)

فهرس المحتويات

المحتـــــوى	الصفحة
المحاضرة الأولى: التمهيدية	03
المحاضرة الثانية: مفهوم السّياق القرآني عند العلماء .	07
المحاضرة الثالثة: أنواع السّياق القرآني .	12
المحاضرة الرابعة: أهمية السياق القرآني ومنزلته في التفسير (01).	31
المحاضرة الخامسة: أهمية السياق القرآني ومنزلته في التفسير (02). (في تفسير الصحابة والتابعين)	37
المحاضرة السادسة: أهمية السياق القرآني ومنزلته في التفسير (03). (عناية العلماء المتقدمين والمتأخرين بدلالة السياق القرآني)	41
المحاضرة السابعة: منزلة السياق من قرائن الترجيح.	46
المحاضرة الثامنة: قواعد السياق وضوابطه (01).	52
المحاضرة التاسعة: قواعد السياق وضوابطه (02).	61
صلة السياق ببعض علوم القرآن	
المحاضرة العاشرة: صلة السياق بعلم أسباب النزول.	70
المحاضرة الحادية عشر: صلة السياق بعلم المكي والمدني .	75
المحاضرة الثانية عشر: صلة السياق بعلم المناسبة .	79
المحاضرة الثالثة عشر: صلة السياق بالمتشابه اللفظي .	90
المحاضرة الرابعة عشر: صلة السياق بالقراءات القرآنية .	94
قائمة المصادر والمراجع	98
فهرس المحتويات	105